خفايا وأسرار من سيرة
الشهيد محمد باقر الصدر

العلامة الشيخ عفيف النابلسي

دار الهادي



خفايا وأسرار من سيرة
الشهيد محمد باقر الصدر


بسم الله الرحمن الرحيم

خفايا وأسرار من سيرة
الشهيد محمد باقر الصدر

بقلم

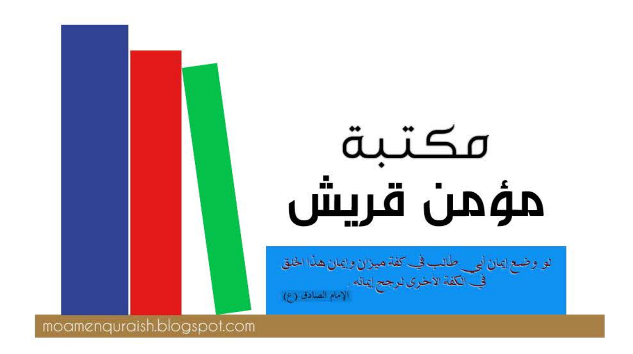
سماحة العلّامة الشيخ عفيف النابلسي



للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م



دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ - ٨٩٦٣٢٩/٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص. ب: ٢٥/٢٨٦ غبيري - بيروت - لبنان

E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

المقدمة

لم تنجب دنيا الإسلام أفضل من محمد باقر الصدر في العالم المعاصر.

(الشيخ مرتضى آل ياسين)

بنظري ان السيد محمد باقر الصدر لم يعرف الهزل في كتابته أبداً.

(فيلسوف مصر زكي نجيب محمود)

اسمع يا شيخ (الشيخ عفيف) ان محمد باقر الصدر هو اعلم علماء الاسلام في هذا العصر.

(الشيخ محمد جواد مغنية)

لم ينازل الماركسية منازل عنيد افضل من محمد باقر الصدر.

(اكرم زعيتر/ الاردن)

لم يرتكب السيد محمد باقر الصدر مكروها في حياته.

(السيد كاظم الحائري)

لم يظهر مدافع عن العقيدة الاسلامية ومذهب أهل البيت عليهم السلام اقوى من السيد محمد باقر الصدر.

(السيد محمود الهاشمي)

بهذه الأقلام المضيئة استأذن الدخول إلى حرم ساحة السيد محمد باقر الصدر المنيفة.

منذ مدة وأنا أتهيب أن اكتب عن هذا الفكر الوقاد والشخصية العملاقة. وانه مهما تقدم بي العمر وزادت تجربتي في الحياة أرى الكلام عن استاذي يجعلني وكأنني حديث المعرفة، قصير اللسان عن البيان.

وقد أحببت أن أترجمه إلى واقع الحياة بكل ما تحمله من هموم وآلام وصراعات، مبتعداً في ذلك عن المدح والفخر ما استطعت، الا ان طبعه وسموّه وفكره العملاق يأبى الا أن يجرّني ويوقعني في هذا الفخ الذي لم استطع ان أخرج منه لقوة تأثيره وسحر بيانه وعلوّ همّته.

سنة تمر وسنة تأتي وأنا في حيرة، كيف أستطيع ان ادخل في تجربة الحديث عن هذه الشخصية وثمة امور عديدة لا استطيع البوح بها لحرصي على أن لا يفهمني أحد. وأنا أسرد بعض التفاصيل الخطيرة. أنني أنقص من أحد العلماء او اقصد من ذلك التعرض لمراجعنا العظام، لكنني في نفس الوقت لا احب اختزال الاحداث ولا القفز عنها لما يشكل ذلك من بتر للسياق، وتضييع للحقيقة، وخلل لا يعود بعدها لكلامي أي معنى وفائدة. وكل ما كان يشدّني ويحفزني لكتابة سيرة الشهيد السعيد هو حرصي على أن لا تضيع هذه الشخصية بين ركام الاتهامات الصديقة من جهة، ونير الظلم والقهر من جهة اخرى.

على أنّ شعوري نحوه ـ مع بُعد الزمن ـ لا يزال وقّاداً مضيئاً، لا يخفت مع كل ما جرى لهذه الامة من آلام ومآسي. وكلما مر بنا اعصار أحسست أننا بحاجة إلى هذا الفكر وهذا العقل من جديد، فقد كان الشهيد بالفعل طاقة جبّارة، لا استطيع ان اقارنها بأحد من المراجع المعاصرين له. مع جل احترام وتقديري لعلمائنا حفظة المسيرة الاسلامية.

ولا يمكن الحديث عن الشهيد بمعزل عن الظروف والملابسات التي كانت محيطة به، وإن حاولت في هذا الكتاب أن اتحدث عن تجربتي الشخصية معه دون سواها من التجارب، بيد أن الكلام يجر الكلام . كما يقولون .

وحاولت أيضاً أن لا اكتب إلا ما شاهدته أو ما سمعته في وقتها مما يمكن أن اثق به، فليس في الكتاب من مصدر الا الكاتب نفسه، فالاحداث التي جرت قبل مجيئي إلى النجف وبعد رحيلي عنها . وإن كانت تتعلق بالشهيد . والتي أعرف عنها الكثير وكتب عنها الكثير، لكنني احتفظت بسيرتي الخاصة، وما عاينته وشعرته بنفسي، وذلك بحكم علاقتي مع الاستاذ الشهيد، حيث كانت تتطوّر تدريجياً مع مرور الزمن.

أكتب هذه الكلمات والدنيا تتمخض لتلد من جديد نظاما للعراق يزيح عنه كابوس البعث الثقيل وصدام اللعين الذي اغرق العراق بالنزاعات والمشاحنات والأمراض والفقر وابتلى العراق الذي فداه الصدر بدمه وروحه بأكثر بلاوى هذا العصر.

ولا شك عندي ان روحه لطاهرة تلاحقنا وتظللنا ونلمح من بعيد كوة النور وفسحة الأمل وشموس الحياة.

وهيهات هيهات ان تطيب بعدك لنا حياة في العراق.

مجيئ السيد إلى لبنان

جاء الشهيد السعيد محمد باقر الصدر إلى لبنان مرتين: الأولى عندما زفت له ابنة عمه السيدة (ام جعفر)، حيث جاء اخوها السيد موسى إلى لبنان مع اخته (السيدة رباب) وحصل اللقاء، والقران والزفاف في لبنان في جو الأسرة، وأحب السيد موسى بلباقته وفراسته ان يعرفَ المثقفون اللبنانيون شيئا من نبوغ فقيههم ومرجعهم وفيلسوفهم الجديد، ففتح له الباب على أكثر من مثقف وعالم، وكان الجميع ينحنون أمام هذا الشاب النضر والخلوق والمفكر، وكان قادرا على تحريك الجلسات العلمية بشكل عجيب حيث يمتلك حضورا علميا لا نظير له فليس هو مؤلف ومنظر فحسب، بل هو صاحب حافظة تختزن علوماً كثيرة يستطيع من خلالها أن يجيب عن جميع الاسئلة بدون تردد.

فبهر العلماء والأدباء، ولم يكن صيته ذائعاً يومها . نعم كان النتاج الاول لفكره الفلسفي قد ظهر تحت عنوان «فلسفتنا» وكان هذا الكتاب أفضل انتاج مبوّب ومنظم تنتجه حوزة النجف الأشرف ردا على الفلسفة الماركسية التي أخذت تتسع في الساحات الاسلامية والدولية. حيث كانت الأمة يومها غير مؤهلة للرد على ماركس وفلسفته والعلمانية وامتداداتها الوجودية ومدارسها، وما إن نزل الكتاب إلى سوق المنافسة حتى اسودّت وجوه (بني ماركس) وابيضت وجوه علماء الدين وأخذوا ينهلون من هذا النبع الدفاق

حيث صارت الأمة تعرف الماركسية عن كثب وتعرف اطروحتها الالحادية، كما اضحت تعرف الفلسفات المادية الأخرى وترد عليها، كل ذلك من خلال هذا الكتاب الجديد والمميز في مضمونه وأسلوبه. وتحول السيد محمد باقر الصدر إلى استاذ لكثير من العلماء الجهابذة.

واذكر ان عالماً من معارفنا كان قد حظي بشراء نسخة من هذا الكتاب (فلسفتنا) وكان يتفرد وحده في منطقتنا بامتلاكه، وعندما كان يقتطف حديثاً من مقدمة الكتاب ويلقيه في بعض المحافل، كان الناس يعجبون لهذا الفهم العميق للفلسفة وفي ظنهم ان هذا الانتاج الفلسفي له، فكانوا يعظمونه كثيرا عندما يسمعون منه مثل هذا الطرح العالمي الذي يناقض الشيوعية والاشتراكية والرأسمالية ويطرح النظام الاسلامي بديلا عن الجميع. ومجتمعنا ـ في حينها ـ كان يتلهف لمثل هذه الطروحات.

فالزيارة الاولى اذاً كانت في حدود الواحد والستين تقريباً ولم أكن يومها أعيش هذه الأجواء الثقافية ولم أكن مهتماً بآراء محمد باقر الصدر.

أما الزيارة الثانية فكانت بعد نجاح السيد موسى برآسة المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى وكان ذلك في ١٩٦٩ في عطلة الصيف حيث هيأ له السيد موسى بيتا في قرية جباع كان قد قدمه للسيد رجل من عائلة مروة ليصطاف في البلد حباً وتقديرا، فما كان من السيد موسى الا ان قدمها إلى السيد محمد باقر ليصطاف فيها أيضاً وبقي السيد موسى متنقلاً بين بيروت وصور وكيفون.

وعندما وصل السيد محمد باقر إلى صور أولاً، وعرفنا بوجوده

ذهبت وكلي شوق إلى رؤيته والاستفادة منه، فوجدت يومها الشيخ أحمد مغنية وبعض الشباب المثقف المتعلم مثل الدكتور ابراهيم عطوة واخوه طبيب الاسنان الدكتور اسماعيل وأخوه الصيدلي المرحوم خليل ،وقدمني السيد موسى يومها بأني نجم المعهد واني اقوم مقامه في ادارة المعهد.

وكان السيد موسى على موعد مع محاضرة في النبطية وكان السيد باقر على موعد مع الشيخ احمد مغنية للذهاب إلى جباع لرؤية البيت.

ولم يطل اجتماعنا أكثر من نصف ساعة حيث شربنا الشاي مع السيد وتوجه السيد باقر إلى جباع وبرفقته الشيخ أحمد مغنية ولم يحصل بعد ذلك أي لقاء بيننا لأنني توجهت . بعد ذلك . إلى كفرحونة للاصطياف وللاشراف الديني على البلدة والتعاون مع الجمعية الخيرية الاسلامية ورئيسها يومئذٍ محسن محسن.

كنت منقطعا في هذه البلدة عن العالَم وكان محسن محسن هو الذي يأتي كل نهار الأحد ليخبرني عن السيد ولقاءاته وأنا مهتم فقط في المدة التي قضيتها وهي ثلاثة اشهر بالتوعية الدينية في تلك الأجواء التي كانت بعيدة عن التاريخ الديني منذ ماءة سنة وكانت بلدة كفرحونة من البلاد المميزة بهوائها ومائها وطيبة أهلها.

ولم تطل مدة اقامة السيد محمد باقر في لبنان بل اضطر للخروج من لبنان على اثر خلاف بين لبنان ومنظمة التحرير الفلسطيني وقد غضب العراق . يومها . من تصرفات حكام لبنان. وطُلب من جميع العراقيين الخروج من لبنان في مدة لا تتجاوز ٤٨ ساعة، مما اضطر السيد الصدر إلى الخروج مع اخوانه إلى سوريا أولاً ومنها بعد ذلك إلى العراق.

هذه الومضة التاريخية القصيرة هي التي اشعلت الحنايا واضرمت نار الحب نحو العراق ونحو هذا الاستاذ الكبير الذي صرنا معه فيما كأننا منه وهو منا، وذبنا في ساحة وجوده وعلمه.

قبيل رحلتي إلى النجف

بعد رحيل السيد محمد باقر الصدر إلى النجف طبع كتاب فلسفتنا مرة أخرى، ثم طبع له كتاب آخر وهو «اقتصادنا» وكان الامام موسى الصدر حريصاً على ثقافتنا الفكرية فكان يدرسنا دروس التفسير بشكل عام لكل الطلاب وكان يعطينا لوحدنا مع بعض زملائنا المتساوين في المعرفة دروسا في الفلسفة من كتاب المنظومة للسبزواري. ولا زلنا نتذكر قوله باستمرار وعلى سبيل المداعبة: (الوجود الذهني هو الوجود الذهني، والوجود الخارجي هو الوجود الخارجي) وكنا نتلطف بهذه العبارة دائما التي قالها أثناء شرحه لهذين البيتين الشعريين الفلسفيين:

معرف الوجود شرح الاسم   وليس بالحد ولا بالرسم
مفهومه من أوضح الاشياء   وكنهه في غاية الغفاء

والسيد موسى ايضا له ذوق فلسفي ويمتلك اطلاعاً جيداً على الفلسفة ويحفظ مفاهيم وأرقام فلسفية من الأسفار الأربعة. وبما اننا كنا كصف أعلى في المعهد، كان يزودنا بالمعارف المهمة والمطلوبة وكانت كتب السيد الطباطبائي غير مترجمة مثل بداية الحكمة ونهاية الحكمة فكان السيد موسى يدرسنا الكتاب نفسه ويترجم النص إلى اللغة العربية مباشرة وكنا نحن نكتب النص العربي.

واراد السيد أن يزيد في قدرتنا الثقافية فتبنى مشروع تدريس

كتابي فلسفتنا واقتصادنا، وكنا قد اشترينا اقتصادنا وقرأناه، وكنا شغوفين به، وبقيت مع هذا الكتاب فترة زمنية ليست قصيرة حتى هضمت الكثير من اطروحاته الاقتصادية وحدي.

ومن باب الصدف ان الاستاذ الذي جاء ليدرسنا كتاب اقتصادنا لم يكن يهضم المادة مثلما كنا نهضمها فناقشناه كثيراً في تلك الاطروحات وكنا نتغلّب عليه أحياناً في النقاش العلمي إلى أن تركنا بعد ذلك درسه حيث وجدنا انفسنا اكثر فهماً منه خصوصا واننا قد قطعنا شوطاً كبيراً في فهمه بسبب كثرة تكرار قراءته.

بدأت احفظ الكثير من مفاهيم واطروحات اقتصادنا حتى ان استاذنا السيد موسى سألني ذات يوم عن مسألة فقلت له هذه راجعة لمنطقة الفراغ التشريعي فقال لي متعجباً: من أين لك هذا التعبير قلت له: اقتبسته من كتاب اقتصادنا.

وأخيرا عندما ترك السيد موسى دروسه الحوزوية التقيت بالمرحوم السيد هاشم معروف وطلبت منه درساً في المكاسب فوافق على ذلك بعد وساطة من الشيخ احمد مغنية لأني كنت قد طلبت منه قبل ذلك درس في كفاية الاصول للشيخ الخراساني فرفض بسبب وجود احد الطلاب معي والذي لم يكن محصّلاً من ناحية علمية فقال في نفسه: ان هذا الدرس ضياع للعمر. ولكن و بعد أن درست عليه طيلة ثلاثة اشهر في كتاب البيع وكنت كل يوم اناقشه واسأله، حتى قال لي أتريد ان تأخذ مني كل علومي ؟! فذكرته بعدم موافقته على درس الكفاية، فقال لي ما كنت اعرفك وكنت اعرف فلان وهو غير مؤهل لدرس الكفاية أما الآن فأنا حاضر لأي درس.

وبالمناسبة فان السيد هاشم معروف الحسني كان يعرف عن اني

أقرأ في كتابي اقتصادنا وفلسفتنا كثيرا فكان ينصحني ان لا أُكثر من مطالعة الماركسية بل علَّي ان اتعب في تحصيل الكتب الثلاثة: الرسائل والمكاسب والكفاية. وقال من يفهم المكاسب سوف يفهم كل المدارس الفكرية الاخرى لأن المكاسب اصعب كتاب والكل تحته في السهولة.

وبالمناسبة فالسيد هاشم استاذ عظيم في هذه الكتب ولا شك عندي بأنه مجتهد وقادر على استنباط الأحكام الشرعية وضابط لعلم الاصول وآثاره العلمية مميزة في عباراته العلمية مما يدل على قدرته وقوته في ميدان الاجتهاد وأنا أذكره من باب الجميل وهو أيضا صديق للسيد محمد باقر الصدر يحبه ويجله كثيرا لعلمه وفضله كرفيقه الشيخ محمد جواد مغنية.

وكان السيد هاشم في بداية الأمر صديقا حميما للسيد موسى ولكن ساءت الأحوال بعد ذلك عندما حصلت مشكلة تخص الدكتور مصطفى شمران وابن شقيقته، فترك صداقته مع السيد ومات وهو غير متوائم مع السيد موسى، ورحم الله الاثنين.

في سنة ١٩٧٠ اصبحت اكثر شوقا إلى النجف والى السيد الصدر وكان بعض الفضلاء الايرانيين يدرس في معهد الدراسات الاسلامية، فرغبني كثيرا ان اذهب إلى قم حيث يوجد مناخ علمي جيد ودروس الفلسفة قائمة على مصراعيها ولما كنت صاحب عيال فكرت كثيرا وترددت كثيرا لان رحلتي إلى قم مجهولة العواقب والنتائج وهي بعيدة علي وعلى عيالي وسيكلفني ذلك نقليات وعذاب وأيضاً لعدم قدرتي على الكلام باللغة الفارسية مما يجعل الامور متعسرة في أكثر من اتجاه .

ولما عرفت ان الشيخ محمد جواد مغنية سافر إلى قم وينوي التوطين فيها كتبت له كتاباً اسأله عن الوضع الدراسي وتفاصيل وضع الطلاب بما في ذلك رواتب الطلاب ولما لم يكن الشيخ يعرفني تماما وكنت قد ذكرت له اسم صديقه السيد هاشم بأنه استاذي، كتب رسالة للسيد هاشم يخبره عن رسالتي ويوضح له فيها الوضع الدراسي والتحصيل ونسبة التحصيل وما تقدمه الحوزة في قم.

وهذه الطريقة غير متبعة لطلاب العلوم . يومها . لأن طالب العلم اذا لم يتوكل على الله في ذلك لا يمكن أن يحقق نجاحا وكنت مع ذلك قريب الفكرة باتجاه قم. غير ان بعض السادة الاكارم وهو من العلماء الأعلام عندما تذاكرت معه في هذا الشأن نصحني ان أذهب إلى النجف لما للنجف من أهمية تاريخية ولكون حوزة النجف الآن هي الأم وفيها أكبر الأساتذة قررت الاخذ بنصيحته وغيرت رأيي وازمعت السير إلى النجف الاشرف بعد أن تخلصت من كثير من العقد وهيأت جوازات السفر.

وكانت زوجتي تتوجس خيفة من المستقبل السيء الذي تسمعه عن الطلبة وتنفرهم فكانت في بداية الامر تنفر من هذا التوجه لكنها استسلمت أخيرا للقرار الحازم وتوكلنا على الله في هذه المسيرة.

قبل رحلتي إلى النجف مات عبد الناصر وبعده السيد محسن الحكيم مرجع الشيعة الامامية في العالم وحصل خلاف بين المرجعية وحزب البعث الحاكم في العراق ووقف السيد موسى ضد الحكومة العراقية ووجهت اليه تهم العمالة والخيانة وكانت اصغر كلمة تقال له: بأنه عميل أمريكي وهذه من أدبيات حزب البعث العربي العراقي ،بل حتى المراجع الأعاظم كانت توجه لهم هذه التهمة ولم أعرف اكثر من هؤلاء دجلا ووقاحة على الاطلاق.

ونُصحتُ من كل الجهات التي كانت تعرف انني ذاهب إلى النجف ان لا اعرف نفسي بأني طالب عند السيد موسى الصدر لما لهذا الاسم من اعداء في العراق من عراقيين ولبنانيين وحتى ايرانيين ايضا.

قبل المسير بأسبوع جلت على الاصدقاء والأحباب والاساتذة والرفقاء فودعت الجميع خصوصا استاذنا السيد هاشم والسيد محمد علي الأمين وذهبت إلى صور فأخبرت السيد موسى برحلتي الجديدة وطلبت منه أن يكتب رسالة إلى السيد محمد باقر الصدر وتواعدت معه يوم الاثنين صباحا الساعة السابعة.

في ليلة الوداع

جاء في تلك الليلة استاذي السيد محمد علي الأمين الذي درست عليه الأدبيات كلها واللمعة والكفاية وقسماً من المكاسب وصار بيني وبينه من الحب ما لا يعلمه الا الله.

وكان أهل البلدة قد جاؤا مجتمعين في المسجد للوداع وتعشى السيد عند أخي الحاج علي محمد أمين «أخي لأمي» وعدنا إلى المسجد واجتمع الأخوة وألقى السيد الأمين كلمة حوالي نصف ساعة ثم ودعنا وانفضت الجلسة بعدما قبّلنا يده المباركة ودعا لنا وسامحنا في كثير من أموال الحق الشرعي الذي وصلنا من الاخوة في ليلتها تبرعات ومساعدة للسفر.

واستمر الوداع حتى الصباح عندما جاءت السيارة وكان كثيرا من الناس حاضرا في الخامسة لوداعنا ونحن نهيء الأغراض والأمتعة. ودعنا الجميع وفوجئنا بسيارة أخرى تسير معنا حتى الشام. في طريقنا إلى الشام ذهبنا إلى المجلس في الحازمية فوجدنا السيد موسى بانتظارنا قد هيأ رسالة ومعها مبلغا قليلاً من المال وذلك خلاف عادته الكريمة.

قبلنا يده وتابعنا سيرنا إلى الشام وكنا على موعد مع السيد كاظم ابراهيم الذي سيرافقنا إلى بغداد. ولما التقينا بالسيد كاظم وجدناه قد غير رأيه وقال بأنه سيبقى في الشام هذه الليلة وغداً سينطلق.

وذهبنا إلى شركة نيرن وهي سيارة مقطورة ومغلقة لكنها مكيفة شبه الطائرة وفيها صندوق كبير للأمتعة والأغراض وفيها مقاعد مريحة وماء بارد وحمام وهكذا ولأول مرة نسافر مثل هذا السفر ومعنا عائلة وأولاد.

وصدفة التقينا في نفس الرحلة بالشيخ محمد جواد الفقيه ابن الشيخ محمد تقي الفقيه العالم المعروف. وصلينا صلاة المغرب والعشاء على الطريق في بعض المحطات كما صلينا صلاة الصبح كذلك. ولدى وصولنا إلى الكراج العام نزلنا هناك ونحن متعبون اما الشيخ محمد جواد فأخذ سيارة مباشرة إلى النجف دون ان يمر على كراج السيارات ولم يهتم برفقتنا. وبما ان اغراضنا كثيرة لم نوفق مثله إلى سيارة عليها حديد على سقفها فأخذنا سيارة على الكراج العام ومنه استأجرنا سيارة مناسبة إلى النجف ودفعنا دينارا زائد على الأغراض.

وكان معنا اضافة إلى اغراضنا وأولادنا الشيخ عدنان زلغوط ومعه صندوقان من الأغراض والمؤن وماذا نصنع ونحن رضينا بمجيئه لصغر سنه ولأنه كان من تلامذتي في المعهد ولا استطيع ان أستأجر سيارتين .

المهم أننا وصلنا إلى المدرسة اللبنانية وسألنا عن الشيخ فهد مهدي فأخذنا الشيخ حسين نور الدين الطالب اللبناني ابن الشيخ علي نور الدين ودلنا على البيت وجاء الشيخ فهد مهدي أبو الغيرة والنخوة فرحب فينا وأنزل الأغراض واسترحنا قليلاً وكان يهمنا أمران: الأول زيارة الامام أمير المؤمنين عليه السلام الذي نعشقه كثيرا والثاني: زيارة السيد محمد باقر الصدر.

ذهب الشيخ عدنان زلغوط إلى بيت اخته واعلم رفقاءنا فجاؤوا الينا على عجل منهم الشيخ علي ياسين والشيخ أحمد صادق والشيخ اسد الله والشيخ راغب حرب والشيخ عبد الله عبد الله.

وبعد الراحة النفسية تركنا العائلة في بيت السيد مع زوجة الشيخ فهد الاخت الحنونة وذهبنا إلى الزيارة وانسنا كثيرا بهذا الجو الديني الرائع في محضر الامام علي عليه السلام. وفي الليل ذهبنا إلى السيد محمد باقر الصدر فقبلنا يده وسلمنا عليه وعرفنا عن أنفسنا وقدمنا له رسالة السيد موسى فرحب كثيرا وقال لي: ما حاجتك قلت المدارس للأولاد أما المنزل فسيساعدنا في استئجاره الشيخ فهد وهو خبير بذلك ففرح لهذا الامر وكلف السيد عبد الكريم القزويني وقال له تذهب إلى منتدى النشر وتقول. باسم السيد. أنّ هذا مرسل من لبنان ثم تأخذ الشيخ إلى بيت السيد الخوئي حتى يقبل يده ويتعرف عليه.

وفي الليلة ذاتها استفدت من حضور السيد من بعض المسائل وكنت خجولا في بداية الأمر. وتعرفت على السادة السيد كاظم الحائري، السيد محمود الهاشمي، السيد محمد باقر الحكيم، السيد محمد صادق الصدر، السيد محمد الغروي، السيد عبد الغني الاردبيلي، ومجموعة من السادة والمشايخ الذين كانوا يحضرون في بعض الازمان.

وكانوا يسألون السيد فيفيض عليهم من علمه. كان بيت السيد بعيدا نسبيا عن الحرم العلوي في منطقة اسمها (الميدان) وكان البيت يتألف من برّاني (صالون) للضيوف والاستقبال والدخلاني (الداخل) للأهل والأولاد. ولم يكن البراني كبيرا ولكن «محل الضيق يسع ألف صديق» كما يقال والمهم ان قلب السيد باقر كان أوسع من كل

البيوت. وليس صعبا ان نقول إنّ البيت ايجار، ولا يوجد للسيد بيت ملك ومات. رضوان الله عليه. وليس له بيت ملك، وقيل ان تجار بغداد المقلدين للسيد طلبوا منه بعد رجاء كبير ان يبنوا له بيتا مناسبا له، وتكون تكلفته من غير اموال الحق الشرعي فرفض ذلك بشدة وقال لهم: عندما يصبح للطلبة بيوت فأنا سوف اقتني بيتاً .

أيام قليلة وجاء شهر رمضان فذهبنا بشكل وفد لتهنئة السيد في بداية الصوم المبارك وبدأت العلاقة تنمو من وقتها حيث أصبحت من الزوار اليوميين له وصادف يوماً ان سألته عن الخراج فأجابني بمعلومات وبأسلوب جديد، وكنت أنقل هذه المعارف لاخواني ومنهم السيد عيسى الطباطبائي فيقول لي لأول مرة اسمع بمثل هذه المعلومات.

وذات يوم سأله شخص وأنا عنده عن جواز كشف المرأة أمام الطبيب الأجنبي من أجل انجاب الأولاد، فأجاب بالجواز فاعترض السيد محمد صادق الصدر بأن العقم ليس مرضاً حتى يجوز الكشف أمام الأجنبي، فأبدى السيد تعجبه من هذا الفهم وقال كيف تقولون ذلك (ورددها مرتين أو ثلاث)ثم أجاب أليس العقم مرضاً خطيراً والأم محتاجة إلى الأولاد وهذه الحاجة طبيعية، ولم يعترض السيد محمد صادق على هذه الاجابة.

وكنت انصت إلى هذا السيد وأفرح كثيراً للاستماع اليه لأن السيد حاذق في الأجوبة.

طال ترددي على بيت السيد والسيد ولم يكن يومها قد شرع في التدريس .وذات ليلة سمعنا بأنه سيشرع في الدروس وسيشرع في دورة أصولية من بدايتها وقال بعض الاخوة يجب ان تحضر الدورة

هذه لأنك بعد سنة عندما تنهي درس المكاسب سوف تتعقد عليك الأمور.

وفعلا صممت على حضور الدرس ولو كان قبل سنة حتى لا تفوتنا المقدمة الممتازة وكان علينا ان نحضر درس المكاسب عند السيد محمد حسين الحكيم وبيته في وسط الزقاق والرسائل عند السيد محمود الهاشمي ودرسه في الساعة السادسة والنصف صباحا وهذا يتطلب ان نخرج من البيت في السادسة قبل طلوع الشمس في الطقس البارد جدا في الكوانين وهكذا عشنا مدة من التعب والبرد الشديد مع ضعف البنية وقلة ذات اليد حتى أننا لم نكن لنملك ما يكفي لشراء عباءة شتوية.

حضور الدرس مبكرا عند السيد لفت انظار الاساتذة والطلاب الينا وبما ان اسلوب السيد مريح شجعنا اكثر للولوج في أعماق الدرس الأصولي ولم يكن بعد قد تعودنا على مثل هذه المحاضرات الصعبة،ولم أكن قد تعودت على اسلوب السيد وتكراره للموضوع ومن ثم اعادته مرة أخرى لتفهيم الطلاب وترسيخ المطلب في اذهانهم كما سنذكره. فاضطررت إلى شراء مسجلة وكان ثمنها غالياً بالنسبة لوضعي المادي وأنا محتاج إلى المال، لكن حبي للدرس وعدم قدرتي على ملاحقة السيد هو الذي حملني المسؤولية المالية المتعبة فدفعت ثلاثين دينارا لشراء المسجلة مع كرسي وطاولة أيضا وهذه لا يوجد غيرها في بيتنا لأن بيوت الطلبة لا أسرّة فيها ولا خزائن ولا مكاتب. بيوت متواضعة، حصيرة أو بساط وفرشة قطن يجلس عليها وينام هو وعياله عليها.

حزب الدعوة والسيد الصدر

كان الشائع في العراق ان السيد محمد باقر الصدر هو مؤسس حزب الدعوة الاسلامي . ولم أكن يومها على علاقة متينة مع سماحته . وكان جماعة الدعوة قريبين جدا من أفكار السيد وأطروحته لمشروع الدولة الاسلامية وكان السيد بأدبه وأخلاقه وسعة اطلاعه يستقطب الشباب الصاعد ويلبي حاجاته الفكرية والسياسية من خلال طروحاته وكتاباته فكان محل اجماع الشباب الناهض والواعي وكان محل استقطاب لكل الجماعات الاسلامية الفكرية في العالم.

وكان بيته مزاراً للشباب المسلم على مختلف اتجاهاتهم السياسية وكان استيعاب السيد للتيارات الاسلامية السنية والشيعية لا غبار عليه، وكان يعطي كل مجموعة حقها من الكلام بحيث تترع كؤوسها وتخرج وهي مرويّة مطمئنة .

وأنا اتساءل في نفسي بإعجاب ودهشة متى اتيح لهذا الرجل الاربعيني الفرصة لهضم الفلسفات القديمة والحديثة والقوانين والأنظمة الوضعية ثم يطرح البديل الاسلامي في السياسة والاقتصاد والاجتماع باسلوب ساحر واستيعاب شامل للجيل الناهض.

ومع كل حبي وتقديري للسيد وخصوصياته الفكرية كنت لا أزال يومها على تقليد المرحوم السيد محسن الحكيم، ولم يدْعُني أحد إلى تقليد السيد وتبنّي مرجعيته الشرعية.

ولما كانت لدي علاقة مع الخطيب العاشورائي الشيخ مجيد الصيمري، ذات يوم ونحن في بيته على طريق الكوفة في كِندة طرح عليّ فكرة الانضمام إلى حزب الدعوة فقلت له أنا أعمل في إطار المرجعية ولا أعمل في اطار الحزب. وبهذه الكلمة المختصرة ترك الشيخ حديثه معي ولم يسجل عليّ اية ملاحظة حزبية.

وكان السيد رحمه الله قد تلقى استفتاءً من السيد حسين هادي الصدر أحد أقاربه وتلامذته في نفس الوقت وهو وكيله في منطقة الكرادة الشرقية، وكان يصلي في جامع التميمي المكان الذي كان يصلي فيه السيد مهدي الحكيم قبل ملاحقته من قبل سلطات البعث العراقي ومفاد الاستفتاء :

«هل يجوز لطالب العلم الديني العمل تحت عنوان حزب اسلامي» فأجاب رحمه الله بما مضمونه: لا يجوز لطالب العلم الديني أن يعمل الا في اطار المرجعية الشرعية وتدريس الحكم الشرعي والفتوى الشرعية، فحرّم الدخول إلى أي حزب بما فيها الاحزاب الاسلامية.

وبهذه الفتوى استطاع السيد أن يضرب على جبهتين :الاولى، التخفيف من كثرة الملاحظات والمؤاخذات الفكرية من الحوزة التقليدية التي تمنع سلوكيا على طالب العلم ان يكون لرأيه اشارة نحو حكومة من بعيد ولا من قريب وكأن الضربة الموجعة التي وجهها الاستعمار وعملاؤه إلى الحوزة بطرد المراجع وملاحقتهم هو الذي جعل الحوزة تنأى بنفسها عن المسارات السياسية ومن هنا وجهت سهام النقد لكل طالب حوزوي يعمل في اطر سياسية واحزاب دينية وكانت الحوزة لا تحب أن تحشر نفسها في أي توجه سياسي .

فكانت الفتوى على مسارهم ومذاقهم فأراحت هؤلاء (المساكين) واطمأنوا إلى اعتدال السيد واستراحته إلى حوزته وتقاليده وارتاحوا نفسيا لهذا التوجه.

الجبهة الثانية: استطاع ان يسحب البساط من تحت الجهاز الحاكم الذي كانت تصله الاخبار تباعا بأن السيد يبني حزبا اسلامياً على غرار سيد قطب وحسن البنا ويطلق عليه حزب الدعوة وأنه . أي السيد . يجهز نفسه ليوم الحسم مع النظام في بغداد .

كذلك فإن السيد استطاع من خلال هذه الفتوى أن يمنع بعض الطلبة المنافقين والجهلة من الدخول في حزب البعث الذي كان يحاول يومها جر علماء الدين إلى داخل الحزب ليكسب بذلك شعبية كبيرة، وجعل أنظار علماء الدين والطلبة ينظرون بسوء إلى هؤلاء الذين غرتهم حفنة من الاموال .

وقد كان بعض المغرضين يوجهون إلى السيد كثيرا من عبارات الاتهام والوشاية وكان كثيراً من الخائفين من المشايخ يهربون من السيد اذا رأوه في الطريق ولا يسلمون عليه خوفا من اتهامهم بعلاقة مع السيد وبالتالي علاقة مع حزب الدعوة.

ونقل لي يومها ان بعض ذوي الشأن من العلماء الذين كانوا على درجة جيدة علميا وكان يدرس المكاسب لكبار طلاب السطوح انه اذا رأى السيد الصدر في الطريق وكان يمشي باتجاه ما، ينحرف إلى الجانب الآخر حتى لا يضطر لرد السلام عليه باعتبار أن السيد هو الذي سيسلّم عليه لسموّ أخلاقه وتواضعه، لا أن يحشر هو للبدء في السلام!!

فالتقية السياسية بلغت أعلى مستوى لها مع هذا السيد خصوصا

والحكم التكريتي يشدد ملاحقته الأمنية للأحزاب السياسية وأهمها حزب الدعوة.

ولما أصبحتُ على صلة أوثق مع السيد الشهيد سألته عن حزب الدعوة وعن صلته بالحزب. فأجاب عن الشق الأول أنه يوجد حزب في العراق اسمه حزب الدعوة ولا مانع من الناحية الشرعية ان يعمل الانسان المسلم في اطار حزبي لمصلحة يراها لأن العمل المنظم مهم في الحياة السياسية.

والدليل عليه ان النبي ﷺ في بداية الدعوة كان عمله سرياً وكان اعداد الدعوة لا يتجاوز العشرين شخصا وكانوا يجتمعون سرا في دار الارقم في زقاق مكة وبما ان النبي ﷺ بدأ دعوته بالعمل السري فيجوز لكل مجموعة ولكل اصلاحي اذا خاف على نفسه من الملاحقات ان يعمل عمل سريا مع رفاقه وأتباعه وهذا رأيي في العمل الحزبي.

ولكن حفاظا على طلاب العلوم الحوزوية افتيت بحرمة العمل الحزبي لحفظ الطلبة من الملاحقة وبالتالي لحفظ الحوزة العلمية من وحشية النظام وجنونه.

وأمام ما يشاع عني بأني أسست حزب الدعوة او انني زعيم او مرجع حزب الدعوة فهذا غير صحيح .

. وكان كلامه هذا بعد أن طلب السيد محسن الحكيم المرجع الاعلى من السيد باقر عدم الدخول في أطر وتنظيمات بغية الحفاظ على قيمة واسم المرجعية(١) .

---

(١) أنظر بهذا الشأن : شاهد الامة وشهيدها للشيخ النعماني ج١، ص:٤١ طبعة المؤتمر العالمي للامام الشهيد الصدر.

وأكمل السيد كلامه معي: نعم انا صاحب فكر واطروحة اسلامية، وكل من يتبنى طرحي وفكري فأنا اقبله وكيف لا اقبله وهو يقبلني ويتبنى فكري تماما كما يقبل المرجع مقلديه ومؤيديه فكما اني اقبل المقلدين في التكاليف الشرعية فأنا أقبل المقلدين في الفكر السياسي العام كما اقبلهم في الفكر الشرعي فما الفرق بينهما. ولا ذنب لي في هذا التوجه وهل يكون لي ذنب اذا كثر المقلدون والاتباع ومحبّو الأفكار الاسلامية والدولة الشرعية والاطروحة الملائمة للجيل الصاعد.

أما أنه عندي حزب وسجلات ومجموعات وأدوات ضاغطة على النظام فهذا ما لا أعرفه أطلاقا.

وحسب قراءتي لما كتب أخيراً عن السيد فقد كان السيد يتكلم معي بخصوص الوضع الراهن. ثم قال: يأتيني اسئلة يوميا من العالم الاسلامي وأنا أجيب عليها على المستويات جميعا وأبين لها الحق والدليل الشرعي على عملها الاسلامي وهي تيارات عاملة وناضجة، وبالأمس جاءني من بيروت مجموعة تسألني عن شرعية عملها الاسلامي فأوضحت لهم الطريق وقلدوني، وهذا هو دأبي.

وبعد صدور الفتوى (فتوى تحريم الدخول إلى الاحزاب) استنكرت أقطاب حزب الدعوة على السيد وشكوا امرهم إلى السيد موسى الصدر. وعندما جئت إلى لبنان في سنة ١٩٧٤ وتحدثت مع السيد موسى عن السيد الصدر ابن عمه قال لي بالحرف الواحد «الشباب زعلانيين من السيد ازاء الفتوى» فقلت له لو كنتُ مكانهم لفرحت كثيراً، حيث ان الفتوى اراحت السيد، وطلبة الحوزة الملاحقين والمراقبين من قبل النظام المجنون».

الرحلة الأولى

العودة إلى لبنان بعد غياب ثلاث سنوات

بقيت فترة مع السيد عبد الكريم القزويني وتعرفت على أخيه عبد الحسين القزويني القريب من السيد الخوئي وأحد أركان بَرانيّة (باحة يستقبل فيها الضيوف) وتيسرت أموري، وصرت أدرس وأباحث دروسي مع طلاب على شاكلتي لهم جدهم واجتهادهم ويتحملون مسؤولية شرعية في أعمارهم وأموالهم.

ومن المعلوم أن الغربة والهجرة والوحدة تساعد كثيرا على تحصيل العلوم حيث لا مناسبات تلهي ولا دنيا تغري، صلاة جماعة وزيارة إمام، ومباحثات في الدروس، واستفادة من بيت السيد وحضور الدروس العامة، وتدريس لطلاب صغار، فالفراغ معبأ والدروس مستمرة وكنز العلم يوميا في ازدياد وكسب الخبرة والمعرفة أمر لا ينتهي.

وكنا نكثر السؤال على السيد وكان فيضه عميما وغامرا علينا فكنا نرجع كل يوم وخصوصا يومي الخميس والجمعة مأنوسين جدا بما حصلنا عليه من اجابات مدهشة .وحقا ان هذا الرجل كان آية إلهية ومعجزة حيث اكتملت شخصيته ونضجت أفكاره، فكان وارث علم الأنبياء بحق.

بعد فترة تم لقاؤنا بالسيد الخوئي الذي رحب بنا واصبحنا بين الحين والآخر نذهب إلى برانيه فنقبل يده ومن النعم ان السيد الخوئي على ما عنده من طلاب كان يعرفني كلما قبلت يده حتى وصلت إلى نقطة واصطفاني وكيلا عنه في الشطرة وسوف يأتي الحديث عن ذلك.

وعودا لما بدأنا أقول:

لما كنت على علاقة جيدة بأهل بلدي وأنا أول عالم في تاريخ البلدة كنت محل ترحيب من كثير منهم على فقرهم وكان الكثير منهم يتمنى لي وضعا ماليا أفضل من ذلك.

إلا أن ظروف السيد محمد باقر الصعبة أخرته عن مساعدة الطلاب وخصوصا مساعدتي وكنت أقول له يكفي منك حسن النية والباقي على الله.

وكانوا قد وجه أهل البلد إليَّ أكثر من رسالة للاستفادة في مناسبة عاشوراء التي تحييها بلدتنا البيسارية ككل بلاد جبل عامل ومن عادة الطلاب ان يهاجروا ويسافروا في مناسبة عطلة شهر رمضان وعطلة عاشوراء إلى القرى والأرياف والى بلاد الخليج والاغتراب الافريقي ويروجوا للدعوة إلى الله ويقيموا مراسيم عاشوراء مع القرى والمدن الشيعية.

وكانت ميزانيتي وصلت إلى الصفر في ذلك الوقت فأنا بحاجة أولا إلى تغيير الجو وثانيا إلى تحسين الميزانية وثالثا إلى تطبيق ونشر المعلومات التي حصلت عليها من المرجع الجديد والاستاذ الكبير ولما تشرفت وحيدا بسماحته وأخبرته عن عزمي على السفر إلى لبنان فرح ورحب بالفكرة وقال مثلك اذا ذهب سوف يغير.

وهنا طلبت منه اجازة في قبض الأموال وتقسيط الحق الشرعي والمصالحات الشرعية فأجازني رحمه الله في كل ما احتاجه بعلاقاتي العملية مع الأمة.

وجئت إلى لبنان في سنة ١٩٧٤ وأنا أحمل معي علومي وتاريخي العلمي ،ووكالتي من السيد بخط اليد وهي أول مرة أحظى بهذا التشريف فكنت أرى وضعي حينها أفضل من كثير من بعض الطلاب وقد حظيت بفضل السيد وكرمه .

ولما جئت إلى بلدنا نزلت أولاً في بيت والدي الذي ماتت زوجته الثانية وبقي وحده ثم انتقلت إلى بيت خالي أبو زوجتي رأيت ذلك أكثر راحة لوجود من يخدمني ويقوم بخدمة الوافدين علي وكان كل وفد يأتي يجلس معي ساعة او ساعتين وانا احدثهم بلا كلل عن النجف والمرجعية وكنت أجيب على كثير من الأسئلة وكانوا يعجبون من الاجوبة التي كنت أقدمها ويقولون بأن الشيخ عفيف صار عالما كبيرا ولا يعرف العلماء في منطقتنا ان يجيبوا مثل هذه الاجوبة.

ثلاث سنوات في خدمة السيد عدت فيها كبيرا مع أنني كنت لا زلت في بداية الدراسة ولا زلت أجهل الكثير من العلوم ومع ذلك حصلت على هذا الاكبار والاجلال من الناس وكنت اوجه اسئلة كثيرة للشباب واشرح لهم الأفكار الاسلامية. وكان كل واحد يقول ما هذه الأفكار التي تطرحها فأجيبهم بأن السيد محمد باقر الصدر وراء ذلك.

بقينا في البلدة حوالي الشهر تقريبا فقمنا بعملية تغيير كبير في القرية وجوارها وكسرنا أنوف الحزبيين بالرقة والمناقشة الهادئة وخصوصا أمام الجمهور حيث كانوا مقتنعين جدا بالأفكار التي اطرحها.

واذكر أنني ذات ليلة كنت أتحدث عن حساسية ضمير الحاكم المسلم وأوردت بعض الامثلة عن الامام أمير المؤمنين وحكومته.

وكان الناس مدهوشين لسماع مثل هذا الطرح وكأن على رؤسهم الطير نساءً ورجالا. فالتفت الي هذا الامر بعض الحزبيين القدامى واستدرك قائلاً ان مثل هذا الطرح غير مألوف في عاشوراء والمألوف هو الحديث عن قصة تاريخية او تفسير آية تناسب الوضع الشعبي أما الحديث عن الحكم والحكومة فهذا شيء جديد ثم سألني هل ان اسيادنا في العراق عندهم مثل هذا التوجه الذي نسمعه الآن ثم ذكر بأن فلان الانسان العادي جدا كان يسمع بكل وعيه وينظر إلى الشيخ مشدوها .فهل ثمة تخطيط لدى المراجع لمثل هذه التوعية والحديث عن الحكومة والحاكم وهل ان علماء الشيعة بدأو يفكرون فعلا بالحكم بينما كانوا سابقا يرضون بالعزلة وينعتون الماشي مع الحكومة بأنه من أعوان الظلمة.

وهنا تناولت الحديث واستكملنا النقاش مع بقية المؤمنين الذين ظلوا في الديوان وكانوا أكثر من ثلاثين من المثقفين الواعين وصوبنا البوصلة باتجاه العبقري الكبير السيد محمد باقر الصدر.

في رحلتي الناجحة التقيت بأساتذتي القدامى وزرتهم في بيوتهم حسب العادة وقصرت في خدمة البعض وأنسوا بي وانست بهم وسألوني عن دراستي وأهم من سأل هو السيد هاشم الذي زار النجف وكنا بخدمته وحاولت استضافته مع الشيخ مغنية فرفض دعوة الطلبة حفاظا عليهم من جانب وتوفيرا عليهم من جانب آخر. وقدم لي السيد هاشم كتابيه سيرة المصطفى(ص) وسيرة الائمة عليهم السلام وقال هذا حق شرعي فقلت له: لا آخذ. قال لماذا ؟ألا تأكل الحق الشرعي قلت بلى. قال اذن لما لا نحسب عليك. قلت

احمله إلى العراق وأتعب به بمقدار عشر ليرات لبنانية ثم اذا قدمته هدية أضطر إلى حمله فتنازل وقدم الكتب هدية.

وذهبت إلى صور فلم أحظَ بالسيد موسى الصدر فتوجهت في اليوم الثاني إلى المجلس الشيعي في الحازمية وعن طريق مكتب المدير العام الشيخ محمود فرحات تكلمت مع السيد موسى بالهاتف الداخلي فقال من؟ قلت: الشيخ عفيف النابلسي قال من اين تتكلم قلت هنا من مكتب المدير العام قال: لحظة ثم بعث خلفي إلى مكتبه الخاص، وتمت المعانقة الحارة وأحفى بالسؤال عن السيد محمد باقر وأهله هناك وأخته أم جعفر ثم عني مباشرة وعن الأولاد وخصوصا عن ابني محمد الذي كان يحبه كثيرا ثم سأل عن الدرس وعدد الطلاب وتوجهات السيد الفكرية والى أين وصل في تدريسه فقلت له وصل إلى مبحث الترتّب.

ثم تحدثنا عن ضرورة حماية السيد محمد باقر وعن مرجعيته وأعطيته بعض المعلومات فقال لي أنا حاضر لهذا الأمر. ثم ذكر قصة الياس الفرزلي البعثي العراقي الذي ذهب اليه السيد موسى وعزاه في وفاة والدته فرآها كبيرة جدا ووعده الفرزلي أن يقوم بدور لاصلاح الخلل الواقع بين السيد موسى والحكومة العراقية والقيادة القومية. وكان الفرزلي قد قال للسيد: أنا نصحت الرفقاء كثيراً ان لا يأخذوا بكل التقريرات التي وصلت من لبنان تؤذي السيد موسى فإن اكثرها أو اغلبها غير صحيح وأن بعضاً من الناس يكتب تقريره حسداً ولا موضوعية لهذه التقارير وبهذا غيّرت نظرة الرفقاء كثيراً واصبحوا اليوم اكثر اطمئناناً للعلاقة واذا كنتم تريدون شيئاً وتحبون فتح العلاقة ـ والكلام لا يزال للفرزلي ـ فأنا حاضر لفتحها ولتأمين زيارة لائقة إلى بغداد أشرح فيها الامور كلها.

ثم قال لي السيد موسى رداً على مبادرة الفرزلي: أما أنا فتريّثت في الجواب لسببين، الاول: اني لا اثق بهم كثيراً، والثاني: اني لا اعرف ماذا يريد السيد محمد باقر بشكل خاص والمرجعية بشكل عام، ولو اني فتحت هذه العلاقة لكنت أقدمت على أمر وأنا أجهله تماماً.

وهنا توجه السيد اليّ ثم قال: اليوم هم محتاجون لنا فهل يمكنك أن توصل رسالة خاصة لمعرفة الهموم الكبرى التي يمكن الحديث فيها عن حماية النجف وحماية السيد باقر، وأنا هنا أطرح موضوع الحوزة في النجف والعتبات المقدسة وخصوصاً موضوع السيد باقر الذي هو أهم عندي من موضوع لبنان باعتبار أن لبنان بلد ذو طوائف متعددة فمهما فعل البعثيون فيه فإنهم لن يستطيعوا سوى تغيير الاسماء، ولهذا اشتروا الاعلام والصحف اللبنانية، وكنا نكتب بكل ثقلنا حتى نستطيع ان ننشر بياناً او خبراً ضدهم. أما في العراق فالحكومة حكومتهم، والفارق بين البلدين كبير.

وبعد فترة قصيرة جدا عدت إلى النجف الأشرف وأخذت معي الرسائل والمساعدات للطلبة من كثير ممن جاءنا من اخواننا الذين لهم أولاد يدرسون العلوم الدينية في النجف.

وصلت إلى النجف حسب العادة قبل الظهر بعد ليلتين على الطريق، ولدى وصولنا جاءنا الاخوة والرفقاء في الدرس وسلموا علينا ورحبوا بنا وكان لإخواننا المقربين جلسة خاصة.

وكان منهم المرحوم الشهيد عباس الموسوي وسألني عن كثير من المحطات في عاشوراء واسهبت في ذكرى عاشوراء.

وليلا أخذت معي هدية إلى استاذي السيد باقر وبعض الأموال

الشرعية التي جئت بها وأخذت معي زوجتي لزيارة أم جعفر ودخلت على السيد ليلا ولم يكن قد وصله الخبر بوصولي إلى النجف ففرح كثيرا وقبلت يده وأخبرته تفصيلا عن الرحلة ونجاحاتها وزياراتي للعلماء حتى وصلت إلى السيد موسى والحديث معه عن حماية النجف وحماية السيد بشكل خاص وحدثته عن عضو القيادة القطرية في لبنان المرشح المحظوظ من قبل القيادة القومية الياس الفرزلي وحديثه مع السيد موسى وان السيد محتاج إلى بيان المطالب الاساسية فيما لو تم اللقاء بينه وبين القيادة القومية فأبدى السيد باقر ارتياحه لهذا الكلام وقام بتدوين الملاحظات مع أنه لا يحتاج إلى ذلك لحسن ذاكرته وصفاء ذهنه، وقال سأفكر بهذا الامر وأبعث الرسالة انشاء الله.

رحلتي إلى لبنان مرة اخرى
بطلب من سماحة السيد

وبعد فترة لا تتجاوز الشهر بعث خلفي استاذي السيد باقر، وقال: خطر ببالي أن تذهب إلى ابن عمي السيد موسى وتحمل الرسالة التالية وتخبره عن تفاصيل الأمور.

وفعلا ذهبت إلى مكتب السفر وحجزت إلى لبنان في اليوم الثاني الساعة العاشرة انطلقنا صباحا فوصلنا في العاشرة إلى بيروت لفارق ساعة بين البلدين ولما لم أكن أحمل حقيبة خرجت من المطار مشيا غير عابئ باصطحاب السيارات الذين لهم رخصة خاصة في المطار لعلمي أنهم يأخذون أكثر وبقيت أمشي حتى خرجت من البوابة الخارجية وهم يحسبون ان عندي من ينتظرني ووصلت إلى احدى سيارات الاجرة وركبت فيها ووصلت إلى المجلس الشيعي

فلم أجد السيد موسى فانتظرت قليلا حتى جاء السائق الخاص وقال لي أنه في كيفون (بلدة لبنانية جبلية) وهو مدعو إلى مأدبة غداء.

وفي محيط المجلس لا يوجد مطاعم بقيت انتظر بدون غداء حتى جاء أبو علي سائق السيد وأخذني إلى كيفون وتعجب السيد

وقال: الا زلت هنا فقلت: لا، جئت من النجف، فعرف أني أحمل رسالة من السيد محمد باقر، ولما انتهى من الناس الموجودين قال لي: تفضلوا، فركبنا السيارة وأفضيت له بالأسرار والآمال المعقودة. وكانت رسالة السيد الشهيد محمد باقر الصدر تتضمن ما يلي:

إن تاريخ النجف ومستقبله مرهون بالمرجعية وبقائها، وأن البعثيين. حسب معلوماتي. لا تحد عداوتهم، وأنا خائف على مستقبل النجف ومصيره، ثم عقّب: ولا شك أن بقاءنا وبقاء مرجعيتنا الواعدة او جهتنا حتى بالشكل الهادئ العادي سيكون له انعكاس على هذا المستقبل.

فإذا أراد السيد موسى فتح العلاقة فلتكن قضية النجف وليكن السيد موضوع الحوار وليأخذ ما يشاء من التوصيات، فأنا موافق عليه لعلمي بحرصه على النجف وعلينا ةوعلى جهتنا بشكل خاص وعلى المرجعيات الاخرى بشكل عام .

ثم يوضح السيد الشهيد في رسالته الشفوية بأن المرجعيات الاخرى لا خوف عليها وانما الخوف عليه وحده. فقال لي السيد موسى: لقد قمتُ بجهد كبير جداً حفاظاً على شخص السيد باقر وانني استدعيت سفراء الدول العظمى الاربعة: روسيا، امريكا، بريطانيا، فرنسا، ووضعتهم في الامور التالية:

حرية الاعتقاد. حرية التحرك. حرية الحياة. وقلت لهم إن حرية المعتقد في العراق وفي ظل الحكومة العراقية وصلت إلى درجة تحت الصفر، فالمسلم الموالي لأهل البيت يعامل في النجف وفي العراق بشكل عام مثلما كان يعامل قبل ألف وثلاثماية سنة، ويمنع من ممارسة شعائره الدينية فلو أن عالماً مسلماً من علماء أهل البيت

صلى جماعة في مجموعة من اصحابه يعتقل وتعتقل معه الجماعة ايضاً، وهذا من اقبح صور العصر.

ثم ان قمع حرية التحرك تمنع على علمائنا في النجف الطباعة والكتابة ويمنع المراجع من ان يتصلوا بالعالم الخارجي على الاطلاق في ظل حكومة بوليسية.

أما الناس وخصوصاً اصحاب النشاط السياسي الذين يتحدثون علانية عن مطالبهم في نقد الحكومة فإنهم محكومون بالاعدام سلفاً دون محاكمة.

وأما بشأن السيد باقر خصوصاً فشرحت لهم المستوى الفكري والنضج العلمي والنبوغ المتفوق منذ الصغر وحتى الآن وأنه أعظم مفكر وفيلسوف وعالم ومرجع وحياته في خطر من تعسف الحكم العراقي ولا ندري بين لحظة وأخرى متى يؤخذ ويعتقل ويحكم عليه بالاعدام دون محاكمة ولا شهود ولا دفاع ولا شيء، فتعجبوا لهذه المعلومات، وأرسلوا تقاريرهم في وقت واحد ووعدتهم وزارتهم بالعمل سريعاً واستدعاء سفير العراق وابلاغه قلق الدول بشأن التمييز المذهبي في النجف الاشرف والخطر المحدق بالسيد محمد باقر الصدر الذي يجب ان يحافظ عليه كنابغة وحيد في هذا العصر .

ولما سمعت هذه المعلومات فرحت جداً ولما جئت إلى النجف نقلتها تفصيلاً للسيد باقر ففرح جداً ودعا للسيد موسى وقال عنه إنه اهل لحمل المسؤولية كما هو أهل للزعامة، كما فرح بتحقيق الاغراض السياسية وتهيئة المناخات الملائمة لأجواء التعاطي والتصالح مع الآخرين.

وظلت هذه الرحلة سراً وبقيت أخفي هذه المعلومات التي أدليت بها الآن في نفسي ولم أخبر بها احداً على الاطلاق.

تصفية الحوزة من العنصر «الفارسي»!

في سنة ١٩٧٤ فوجئ الطلاب والأساتذة والحوزة بشكل عام بقرار من الحكومة العراقية بطرد العناصر الفارسية وغير العربية من البلاد المقدسة ،النجف الاشرف وكربلاء والكاظمية وأعطي لهم مهلة لا تتجاوز اليومين فقط، ولهذا فإن البعض كان يبيع أثاثه بأرخص الاسعار، وكانت هذه المدن تعج بالعنصر الفارسي وهم شيعة آل محمد(ص) اصحاب تاريخ وأصحاب نشاط تجاري وعلمي وعقاري وهم أصحاب ذوق وفن وتجارة وما اليها.

وكانت شرطة الحكومة تقبض على الافراد الفارسية في الطريق ويضعونهم في السيارات ويسفرونهم إلى الحدود العراقية الايرانية ويتركونهم دون خيم وثياب وطعام حتى سرحوا أكثر من ستين ألف شخص في ثلاثة ايام. كان بينهم آية الله العظمى السيد كاظم الحائري أحد أبرز تلامذة السيد الصدر، والشيخ محي الدين المازندراني .

فأضربت الحوزة احتجاجا على ذلك أكثر من أربعة أشهر وفي واقع الامر إن الدرس الوحيد الذي تعطل هو درس الخارج اما الدروس الاخرى فكانت مستمرة. ومن هنا عكفنا على التدريس وكنا ندرس كل يوم حوالي ستة دروس وكنا نذهب يوميا مرة أو مرتين إلى بيت السيد نأنس به ويأنس بنا.

وأخيرا ضاق ذرع الطلبة بهذا العمل التصفوي العرقي ووجد سماحة السيد الصدر ان الاضراب المفتوح غير مجد لأن من أهداف الحكم التكريتي في هذا العمل هو تعطيل الحوزة وتهميش دورها وضعضعتها. واستولت الحكومة يومها على كثير من مساكن الطلبة الاجانب وأسكنت جماعتها من المخابرات والتابعين لها.

ولما رأى المرحوم الشهيد أن الاضراب لم يؤد إلى أية نتيجة حيث لا إعلام ولا مظاهرات ولا أي عمل تشعر به الحكومة بما يعكر صفوها، فقد كانت امنيتها ان تبقى الحوزة معطلة إلى سنة أو اكثر، والسيد الشهيد كان يحترق الماً لهذه البلادة الذهنية من العلماء الذين لم يعرفوا تقييم الوضع ونتائج هذا الاضراب، وكان السيد من ديوانه الصغير الذي يمتلئ ويفرغ عدة مرات في اليوم ويأتيه الناس من كل حدب وصوب، يعلن مواقفه من هذه الاجراءات الخطيرة لكنها كانت مواقف هادئة وقليلة.

حتى قرر أخيراً أن يقوم بجولة على أكثر الشخصيات العلمائية ويحثهم على أعادة الدروس إلى ماضيها المجيد، ويذكر له مساوئ الاضراب الصامت في مثل هذه البلاد التي لا تنجح فيها المظاهرات الهادرة ولا الاعلام الكبير يخيف الحكومة. وظل مصراً على هذا التعاطي يومياً لإعادة الدروس كما كانت عليها.

وكانت المشكلة الكبرى أن بعض المراجع يرون أن الاضراب قد حقق فوائد، لأن الحكومة أغلقت الباب وتركت للناس حريتهم. بينما كان الشهيد يرى أن التعطيل المستمر الهادئ فيه مصلحة للدولة.

ثم بدأ بعملية تحرك واسعة على أقطاب الحوزة وأساتذتها

الكبار بدءً بالسيد الخوئي والسيد الشهرودي والسيد عبد الله الشيرازي الذي اضطر أخيرا للسفر والتوجه نحو مشهد ليجعلها مقرها الأخير ويطلق فيها صوتها الثوري.

وأيضا إلتقى في تحركه بأساتذة السطوح وبعث خلف أكثر المدرسين وحثهم على اعادة الدروس وفعلا استجاب الجميع لطرح السيد الصدر الذي تحرك بداعي الحرص والرغبة على بقاء الحوزة حية ثائرة وقال يومها: لا يجوز أن تتحول الحوزة إلى جثة كبيرة هامدة ونائمة. وأكد على ان اعادة الدروس وحضور الطلاب في دروس الخارج الكبيرة في المسجد الهندي ومسجد الخضرة ومسجد الطوسي وهي بالآلاف تجسد القوة والوحدة وتغيظ السلطة والحزب الحاكم.

ونجح السيد بجولته وعدنا إلى الدروس، ولشوقنا إلى الدروس كنا نحن بدورنا نطلب من السيد رحمه الله أن يدرس وحده فرفض ذلك لأنه لا يريد ان يقوم بعمل فردي ،ويريد النهوض بالحوزة كلها. وأذكر أننا كنا على موعد مع الدرس وذهبت اليه ليلا لأتأكد من حضور السيد صباحا فقال قد أجّل البحث إلى موعد آخر، ولم أسأله عن السبب لأني وجدته في حالة غير عادية.

ولكن نظمت هذه الحالة بثلاثة أبيات من الشعر وهي مسجلة في دفتري الذي بقي في مكتبتي في الحرية في حسينية الهادي قرب الكاظمية.

ذهبت إلى الصدر الشريف يشدني ولوعٌ ولكنْ كاد يعروني اللهثُ
ورحت أناغي الدرس حيث جنابه فقيهٌ ويحثو في الفقاهة ما يحثو
ولما طرقتُ البحثَ واليوم موعدٌ أجاب بأن اليوم قد أجّل البحثُ

فعدت إلى البيت والهمّ يؤرقني ودعوت الله أن يشرح صدري بإعادة الدروس وأنطلقت نحو التدريس بهمة أكبر حتى لا أبقى في هذه الحالة .

استمر هذا الركود وقتا ليس بطويل وبعد أربعة اشهر تقريبا عاد السيد الخوئي وأعلن عن افتتاح درسه وكان الطلاب على موعد مع ذلك واذا بمسجد الخضرة يعج ويمتلئ في الداخل والخارج وتعود حالة التحصيل والنمو إلى الأمام والتقدم.

وبالطبع عاد درس السيد الصدر كما كان، قوةً وفقاهةً وبدأ (سقراط) يلوح في أفق المعرفة من جديد.

وبعدها بأيام بدأ تفكير طلاب السيد بطرح اسم الصدر علناً للمرجعية وكنت من أكثرهم جرأة في طرحي ولاقيت من جرأتي عتبا كبيراً من المرجعيات وحتى من الطلاب اللبنانيين القدامى الذين تحولوا حواشي للمراجع وكانوا يشكلون قوة في الوجاهة الطلابية لدى المراجع وهي حالة معروفة ومأنوسة في النجف الاشرف آنذاك.

الشهداء الخمسة

بدأ حزب البعث الحاكم يتربص بالحوزة العلمية في النجف وكربلاء حتى إذا لاح له خيط من الوهم يحوله إلى حقيقة ويلاحق المتهمين ويزجهم في زنازينه انتقاما لكفره ونزولا عند رغبة أسياده في الكرملين والبيت الأبيض.

ولكم لاحق الطلاب الأبرياء ومنهم طلاب السيد الشهيد كالسيد محمود الهاشمي الشاهرودي والشهيد السيد محمد صادق الصدر والسيد محمد باقر الحكيم وكثير من العلماء الشهداء لكن الجريمة الكبرى والادانة والعقوبة كانت للمرحومين الشيخ عارف البصري إمام جامع التميمي وحسينية الزوية بكرادة مريم والكرادة الشرقية والمسؤول عن مدارس الجواد التي كان قد أسسها العلامة السيد مرتضى العسكري وذات يوم أصبحت السيدة آمنة الصدر مسؤولة عنها.

وكذلك السيد عماد التبريزي والسيد عز الدين القبانجي وهذان من زملائي في درس السطوح والخارج وشهيدان من كربلاء .

كان ذلك في العام ١٩٧٥ عندما لاحق الحكم هؤلاء مع غيرهم وزجهم في السجن ثم أعلن حكم الإعدام عليهم. لكن قبل عملية التنفيذ توسط للسيد الخوئي وفد من بغداد وقدر بحوالي خمسين شخصية اسلامية يتقدمهم المرحوم الشهيد نجاح مع أخيه

السيد صباح أحد الأركان في حضور درسي وأحد الخطباء في عاشوراء وكان مؤثرا جدا.

وفي اليوم التالي بعث السيد الخوئي(الكليدار) (سادن الروضة الحيدرية) إلى أحمد حسن البكر رئيس الجمهورية طالباً منه التدخل واصدار عفو عن هؤلاء الشباب ،فماطل الرئيس وسوّف، حتى فوجئ الجميع بتطبيق حكم الإعدام رمياً بالرصاص وجيء بالشهداء إلى النجف فأضربت الحوزة. وهوجم بعد ذلك بيت السيد الصدر من قبل الأمن العراقي.

وقبل دفن الشهداء الخمسة قامت الحكومة باجراءات احترازية خوفاً من عمل شعبي موجه من قبل السيد الصدر خصوصاً وأن وفداً كبيراً جاء من الكرادة وجميع التشكيلات في بغداد لزيارة المراجع وزاروا المرجعيات واحداً واحداً كما زاروا بعض الشخصيات المؤهلة للمرجعية في المستقبل.

وبما ان الصدر هو الوحيد الذي ربى هؤلاء وأمثالهم كان قلبه يتمزق مزقاً مزقاً ولا شك ان المرجعيات لم تكن راضية باعتقالهم فضلاً عن قتلهم لكنهم لم يقدموا أي عمل يذكر حيث لا اوراق لديها مع الحكومة وهي لا تتواصل ولا تتصدر لحل مشاكل الامة. وترى. أي المرجعية. ان وظيفتها محدودة باعطاء الدروس وتوزيع الرواتب وتأمين حاجات المساجد من الطلاب وبالتالي تتقبل كل انواع التحويل من الخمس والزكاة والنذور والكفارات من باب الحسبة والوكالة عن الامام المهدي (عج) لكنها لا تقوم مقامه في دفع الضيم وحل مشاكل الامة وهي مع ذلك لا تعترف بحكومات زمنية غير شرعية ولا تقوم بدورها الايجابي لحماية مثل هؤلاء الذي قدموا تضحيات وخدمات جسام للأمة في بغداد فتركهم في السجون والزنازين والمشانق.

وكانت الحكومة البعثية تعرف سلفاً ان المرجعية الوحيدة هي التي يخاف منها ان تحرك الشارع وتخرج الجماهير. من هنا وجهت الحراب إلى ذات السيد الصدر وسلت جميع السيوف عليه وكان رحمه الله هو الامل وهو صاحب القرار الخطير ولكنه أصيب بصدمة لأنه كان ينبغي على المرجعية ان تصدر تحركاً بأمر المرجع الاعلى للأمة .

والمهم ان الحوزة لم تتحرك بمرجعيتها ولم يتحرك السيد الصدر لسببين: **الاول**: انه يعتبر ان السياسة العليا تقررها المرجعية العليا وليس هو، **والثاني**: ان السيد اصيب بألم حاد في الرأس استدعى نقله إلى المستشفى وذلك لما عرف بمقتل هؤلاء الشهداء فذهبنا إلى منزله وكان جالساً، فتجمّد في مكانه لغلبة عاطفته على (أولاده) ولم يتمكن من الحركة بعدها، ولما جيء له بدواء الاسبرين شرب أكثر من عشرين حبة وفجأة ارتفع ضغطه وحمل إلى مستشفى النجف الحديثة ولاحقته المخابرات العراقية وألقت القبض عليه في المستشفى ووضع في ردهة الاعتقال.

وكنا نحن طلابه نذهب كل يوم صباحا ونقف مرات ومرات ساعات طوال أمام المستشفى للنظر إلى وجهه حتى سمح لنا أخيرا بزيارته وتقبيل يديه وكان بعض اخواننا الواعين يطلب من الطلبة التحرك والانتشار حتى يُعرفوا الناس ان السيد مسجون وموضوع في ردهة الاعتقال.

ولما عرفت الحوزة والمراجع قامت القيامة وتدخل السيد الخوئي وبعث أكثر من وفد إلى بغداد كما بعث أكثر من وفد مرة ومرتين إلى السيد في المستشفى.

وكان هذا العمل بمثابة عملية احترازية من الحكومة بإلقاء القبض على السيد وأخذ السيد محمد باقر الحكيم وذلك خوفاً من ردة فعل جماهيري بتحريك من السيد الصدر إزاء ما أجرمته الحكومة.

ولما هدأت الأوضاع ورأى الحزب الحاكم أن الجريمة مرت دون ثورة شعبية عاد وأطلق سراح السيد وخُيّر بين أن يبقى مدة أطول في المستشفى أو يخرج إلى بيته مع رقابة الطبيب فاختار البيت لأنه أكثر راحة من المستشفى وأخف كلفة على الطلاب والأحباب وكان بعض مقلدي السيد قد بنى بيتا مع حديقة جميلة على طريق الكوفة وقد سافر إلى لندن فقدم هذا البيت الواسع مع حديقته للسيد ليكون منتجعا صيفيا وربيعياً له، فانتقل اليه وكان العطلة الصيفية قد بدأت فبقي السيد للنقاهة فترة استمرت حوالي ثلاثة أشهر.

ما أشيع من تهم عن حزب الدعوة وملاحقة طلاب السيد وأخذ السيد محمد باقر الحكيم والحكم عليه بالاعدام أخاف الحوزة والطلاب وكل النشطاء وحتى التجار العاديين وكنا مع بعض الطلاب لا نقطع عن زيارته اليومية.

فكان السيد محمد صادق الصدر رحمه الله والشيخ محي الدين المازندراني والسيد محمود الخطيب وأنا من الملازمين له كل يوم فنذهب من العاشرة صباحا حتى الظهر تقريبا وأحيانا نعود العصر قبيل المغرب لا نترك السيد وحده.

وكنا نؤكد لسماحته بأن أرواحنا فداه ولا نهتم بالرقابة الدائمة للأمن العراقي علينا ولما عرف بعض اللبنانيين بأني أذهب يوميا إلى بيت السيد بالكوفة تعجبوا من جرأتي ومتابعتي بهذا الشكل.

وأذكر أن أحد العلماء اللبنانيين الفضلاء عندما التقيت به وكان قليل الخروج من البيت الا اذا اضطر، فسألني عن السيد فقلت له: إنه بخير فقال سلم عليه، وقل له أنا أحبه كثيرا ولكن شدة الأزمة تمنعني من الذهاب اليه، فقلت له لا يوجد أية أزمة، وأنا كل يوم أذهب فلماذا تتوهم بوجود أزمة يا مولانا. قال على كل حال سلم على السيد وأخبره بذلك. وفعلا وفي اليوم الثاني ذهبت وبلغت السيد السلام والمعذرة والمحبة فردّ عليّ رحمه الله: وذلك أضعف الايمان.

كان المطلوب من الحوزة أن تكون أكثر التفافا حول السيد ولكنها قصرت ولم يبرز منها ما ينبغي فعله. وفي نهاية شهر آب كان موعد وفاة الإمام الكاظم وبداية دروس الحوزة ،فعاد السيد إلى بيته في النجف وهو بيت ايجار لأولاد المرحوم الشيخ المامقاني، وأعلن عن إقامة مجلس عزاء ثلاثة أيام وطلب من الخطيب الشهير السيد جواد شبر أن يقرأ هذه الليالي الثلاث وكان شبر من محبي السيد الصدر.

فكنا نذهب كل ليلة وقد توافد الطلاب والأعيان، وبعث السيد الخوئي وفدا من قبله وتحركت الحوزة باتجاه السيد تأييدا له، فتعزز موقع السيد الاجتماعي والشعبي وكان حضور العلماء الكبار ملفتا للنظر اذ شعروا بالتقصير فتلافوا هذا النقص في حضورهم لمجلس العزاء. وأذكر في الليلة الثالثة جاء شاعر ولديه قصيدة في مدح السيد ولم يكن السيد على علم بذلك إذ ليس في منهجه أكثر من قراءة القرآن ثم مجلس العزاء وفجأة أطل هذا الشاعر وبدأ بإلقاء القصيدة ولما ذكر اسم السيد وقف سماحته وطلب من الشاعر أن يمدح سيد الشهداء وقال اتركوا اسمي .

وكانت هذه المبادرة موقفاً لافتاً منه حيث أكبره العلماء، واحترموه على تواضعه وزهده في الدنيا والمديح مع أنه أهل ومحل لمدح الشعراء لكنه عزف عن هذا الجانب الذي يهتم به الكثيرون.

واذكر بالمناسبة حينما احتدمت الحرب الأهلية في لبنان وهجر أهالي حي النبعة وبرج حمود والدكوانة وتل الزعتر وكانوا أكثرهم من البقاع والجنوب وكان منهم الشاعر الشيخ محمود مهدي العاملي من طير دبا وهو صديق قديم لي ولما جاء إلى النجف والى قم حاملا معه همومه وفقره وحزنه على استشهاد ولده في سيارته أخذناه إلى المراجع وقدموا له مبلغاً مناسبا من المال ولما جئنا إلى السيد وكنت أنا والشيخ حسن طراد ومعنا بعض الاخوة طلبنا جلسة خاصة من السيد فسردنا له قصة الشيخ فتبرّع رحمه الله بمبلغ كبير وكذلك تبرع السيد الخوئي والسيد الخميني مع أن الفارق بعيد في ميزانيات المراجع الثلاث الا أن النسبة كانت عند الشهيد الصدر أعلى من الاثنين معا.

وهذا الكرم من السيد أثار قريحة الشاعر محمود مهدي ومدح السيد بقصيدة عصماء وجاء معنا مرة أخرى لينشد القصيدة أمام السيد فاعتذر السيد عن استماع قصائد المدح وشكره وأخذ القصيدة.

وفي اليوم التالي بعث له بهدية لأنه شعر بانكسار خاطره وهذه من أخلاقه العالية .

ثم عاد السيد بعد رحلة النقاهة إلى حقله العلمي، وعاد (البراني)[١] كأحسن ما يكون ازدهارا.

---

(١) البراني : مكان واسع يشبه الصالون يستقبل فيه المرجع زواره.

وكنا نكتب كل ما يقوله السيد من الأجوبة سواء كانت الاسئلة منا أو من الحضور المثقف الذي يأتي وفي جعبته الف سؤال وسؤال ويخرج وهو أحسن ما يكون فرحا وسرورا واغتباطا بالمرجعية الجديدة.

انفتاح الحكم على السيد الصدر

بعد الضربة الموجعة لعناصر حزب الدعوة وإعلان السيد الصدر حرمة الالتزام بأي حزب اسلامي أو غيره لطلاب الحوزة الدينية ونأى بنفسه عن الاحزاب جميعها، وأنه مرجع للأمة الاسلامية صارت الأمة تتجه اليه من كل حدب وصوب وتحوّل بعض السنة في بغداد إلى تقليده وكان مسرورا جدا بتوجه الشباب الواعي من السنة إلى تقليده حيث رأوا فيه مرجعا عاما لكل المسلمين الذين بدأت وفودهم تتردد على بابه .

بداية سجل له زيارة لأستاذ في جامعة بغداد وهي زيارة ثقافية وأكاديمية بحتة وسأله عن ابحاث وكتابات عديدة. وعاد الاستاذ الكبير مسرورا بل مدهوشا بسعة علم السيد وأحاطته للثقافات العامة.

وجاء شهر رمضان فكانت المناسبة تقتضي زيارة المراجع من قبل الحكومة وكانت هدية المرجع القرآن المرصع والموقع بتوقيع السيد المهيب أحمد حسن البكر وبعدما زار السيد الخوئي جاء إلى زيارة السيد الصدر وبحضور الطلبة تقدم محافظ كربلاء السيد عبد الرزاق الحبوبي وجلس أمام السيد راكعا وقدم المصحف الشريف المذهب وقال أقدم هذه النسخة من المصحف المبارك والمذهبة هدية من الرئيس المؤمن المصلي الصائم والراكع الساجد السيد المهيب

أحمد حسن البكر لسماحتكم. وقدمه إلى السيد فأخذ السيد القرآن الكريم بحلته الذهبية وقبله ثم قال أسأل الله أن يتقبل منكم ومن الرئيس العزيز وأن يوفق الرئيس للعمل في هذا القرآن ويحكم آياته ويطبق مضامينه ويتحلى بهداه ويسير على مناهجه مع الشكر للمحافظ المؤمن ابن العشيرة الطيبة التي كان منها المراجع العظام والشعراء الكبار.

وخرج الوفد مرتاحا لهذا التناغم والتواصل واعتبر الوفد انه حقق حالة انفتاح مع المرجعية كما اعتبرت المرجعية انها حققت حالة انفتاح دون كلفة او تنازل عن شيء. وهذا هو المهم.

كان السيد الصدر يفكر دائما بعقل منفتح وواع ولكن حواشي المرجعيات التي تخاف على مستقبلها الباهت كانت تسهم في تعكير هذا الانفتاح. وكانوا جميعا يخافون من مرجعية السيد الواعدة وكانت ثقافة السيد مخيفة لتصور الآخرين الذين يريدون أن يكونوا الواجهة العلمية الوجاهتية دون علمٍ يؤهلهم لذلك.

وكان علم السيد وكتبه تفضح كل المزورين فمن الذي يقرأ فلسفتنا أو اقتصادنا ثم يتجه إلى عالم غير هذا العالم ومن الذي يحضر درس السيد في الحوزة العلمية ويراه فارس الحلبة يشرح وجهة النظر العلمائية ثم يقدم عرضه من جديد كأحسن ما يكون عرضا وإحاطة واستدلالا وسعة أفق.

ذات يوم أحب أن يمتحن بعض طلابه الخواص فجمعنا وسأل عن دفاترنا فجئنا بها وتصفحها دفترا دفترا وحثنا على الجد والتحصيل والتفوق حيث الحاجة العلمية تدعو إلى ذلك.

وجمعنا ليلا وبين لنا اطروحته في اعطاء الدرس وكيف

استحصل من خلال المعاناة اشكالاته على الاساتذة. ومما قاله رحمه الله: كنت اشكل على السيد الخوئي كثيرا وكان السيد حاضر الجواب لكل الاشكالات وكنت اعجب بالسيد الخوئي على احاطته فخطر ببالي ان الاشكال الذي اقدمه ليس هو الاشكال الذي يقدم للاستاذ فصرت اقرأ الدرس قبل حضور الاستاذ وافكر في الاشكال فإذا تنبهت لاشكال كنت افكر في دفعه وكنت اذا دفعته افكر ايضا باشكال جديد ثم افكر بدفعه وهكذا مرتين أو ثلاث أو أربع ثم يحصل الاشكال الذي ليس له جواب فأقول هذا هو الإشكال وعندئذ أقدم اشكالي الذي لا جواب له عندي وربما يكون لا جواب له عند السيد. ثم قال لنا: هذا هو الاشكال لا كل ما يخطر في الذهن من البدوة الأولى.

ثم قال من هو العالم: فتهيأنا للرد، ثم قال العالم هو الذي يعرف العلم من أوله إلى آخره. بحيث لو وجهتَ له سؤالا لكانت القاعدة في المسألة حاضرة ليطبقها على المصاديق فإذا رأيت عالما بهذه الصفة فهذا هو العالم المجتهد المؤهل للجواب على المسائل المطروحة.

ثم ذكر أمثلة كثيرة في الصلاة والصوم والحج والمواريث والفلسفة. فخرجنا من درسه مدهوشين شاكرين الله على هذا التوفيق وعلى هذا الاستاذ الذي يرفع من قيمة طلابه معنويا وعلميا ليضعهم على عينه ويقدمهم مشاعل هداية ونور.

الزيارات الرسمية لحكومة بغداد او للمراجع

بعد تهجير الكم الكبير من الشعب الإيراني واستلاب ممتلكاته أو بيعها بأبخس الأثمان أرادت الحكومة ان تمد يد التعاون للمرجعية والشخصيات الدينية من بيوتات النجف فقامت الدولة بزيارة المراجع وأوفدت من قبلها عضو القيادة القومية الدكتور زيد حيدر من قرية بدنايل البقاعية. وكان من أعضاء الوفد محافظ كربلاء السيد عبد الرزاق الحبوبي وجاء الوفد الرسمي بكل تواضع وزار المراجع ولم نكن يومها عند السيد الخوئي. وعندما جئنا إلى درس الاصول الذي يلقيه الشهيد الصدر في مسجد الشيخ الطوسي تأخر السيد عن موعد الدرس خلاف العادة وعندما انتهى الوقت توجسنا خيفة من مرض ونحوه، وفي وسط الطريق أُخبرنا ان التأخر هو مجيء الوفد الرسمي في هذا الوقت ولم يره السيد من المناسب الاعتذار بحجة الدرس خوفا من التفسير الآخر وأنه لا يحب ملاقاتهم. فأكملنا طريقنا إلى بيت السيد فوجدناه عاجّاً بالإخوة الطلاب فسلمنا وقبّلنا يد السيد وجلسنا، فبدأ يحدثنا عما قالوا وعما قال لهم. وبالطبع لم يكن في احاديث الوفد سوى المجاملة والإشارة البعيدة إلى الثورة والحزب ورحبوا به كمرجع عربي كبير للثورة والحزب، وهو طعم ملغوم، معناه أن الشهيد لو سكت عن هذه الاقتراحات فهو قد قبل العلاقة مع الدولة على شاكلة بعض وعاظ السلاطين.

ولكن السيد لم يأكل من هذا الطعم بل شدد في وعظه عليهم وأفهمهم واجبهم كدولة وقال أنا مرجع لكل المسلمين ولست مرجعا للعراق فقط ولا للعرب أيضا ثم طلب منهم بعض المطالب حول قبر الشيخ الكليني والحسين بن روح التوبيخي او محمد بن علي السمري وشرح لهم الغيبة باختصار لأن الدولة كانت تريد هدم هذه القبور لأنها في وسط الاسواق الكبرى في بغداد. كما أظهر للوفد أهمية الحوزة بتاريخها المشرف في الجهاد وذكرهم بالثورة في مواجهة البريطانيين كما ذكرهم بالسيد عبد الحسين شرف الدين، كما أشار لهم بأنه قادر على تخريب مصالح الدولة، ولكنه يحافظ على الملك العام للأمة فاستحسن الدكتور زيد هذا التوجه فقال نحن نعتز ونفتخر ان يكون مثلك مرجعا للحزب والثورة فأجاب السيد فوراً: أنا مرجع المسلمين جميعا.

نسيت الكثير من الكلام الذي دار في هذه الجلسة ولا أذكر الآن ترابطه لكن السيد بعد ذلك أمرنا بنشر ما جرى من احاديث خلال هذا اللقاء .

وتمت حالة من التناغم وتكررت هذه الزيارات للمرجعية الواعدة والطموحة وظهر فريق من الحزب الحاكم له ميل للتصالح مع المرجعية الجديدة بل كل المرجعيات لما تمثل المرجعية من عمق فكري وديني وشعبي أيضا. ونقل عن زيد حيدر اعجابه الكبير بشخصية السيد الصدر وقدرته العلمية وشجاعته الأدبية وأنه يتكلم وهو في أعلى سلطة المسؤولية. وبدأ زيد حيدر وأخوه كما كان ينقل أقاربه الشيخ أديب حيدر بأن فلسفتنا واقتصادنا لا يفارقان يد الدكتور زيد وأخيه وكان زيد يتمنى على السيد فتح العلاقة أكثر مع الحزب الحاكم لأنه موقع مهم للنصح والإفادة العامة. ولأن الدكتور زيد من

لبنان أحب الإطلالة على طلبة الحوزة اللبنانيين تعين عقد جلسة معهم في الساعة الخامسة عصرا في بيت كبير الطلاب الشيخ مفيد الفقيه. وفي الوقت المطلوب ذهبنا والتقينا بالوفد الرسمي وكان المتحدث باسم اللبنانيين الشيخ حسن طراد الذي قدم فكرة موجزة عن ثورية الحوزة ومقاومة المحتل وثورة العشرين الشهيرة والتي لم يقم بها الا العلماء والمراجع وذكر المراجع الذين نصبوا خيامهم في وسط الميدان وكانوا يشجعون الشباب للمعركة حتى يذهب المحتل البريطاني عن أرض العراق. ثم ختم كلامه بأبيات من الشعر اللطيف وصفا ومدحا بالوفد الزائر. وسأل الوفد عن اساتذة الحوزة ،هل العرب أكثر أم الايرانييون فأجابوا بأنّ الفرس أكثر، فاستاء كقومي عربي وأسرها وغير الموجة إلى مواضيع أخرى.

سد الفرات أو سد الأسد

في العام ١٩٧٦ احتدم الخلاف بين جناحي حزب البعث اليمين واليسار وانقسم إلى فريق في العراق وفريق في الشام وكان لكل فريق دولة وقيادات قطرية وقومية. وكان زيد حيدر في البداية مع القيادة القطرية في سوريا ولدى خلافه مع الحكم القائم في سوريا حكم عليه في سوريا بالسجن المؤبد أو الإعدام .وقد دعاه ذلك أن يهرب من الشام إلى بغداد وهناك وضعت تحت يده امكانات عديدة وعُيّن عضو قيادة قومية وصار له مسؤولية على مستوى الوطن العربي وهو رجل مؤهل ومنظر حزبي وقومي.

في موازاة ذلك كان الرئيس الاسد قد بنى سداً يروي أكثر من مليون فدان في سهول سوريا وعندما أكملت الشركة المتعاقدة بناء السد أدارت عليه الماء وأدى ذلك إلى انقطاع المياه عن الفرات الأوسط بكامله حتى هاجر آلاف العوائل العراقية التي تعيش على هذا الشط من زراعة الرز وتربية المواشي. وشن الحزب الحاكم في بغداد حملة شديدة على الفريق السوري وشبهه بمعاوية ويزيد الذي منع الماء عن أهل البيت عليهم السلام في كربلاء، وكان الإعلام العراقي بأكمله لا يفتر عن إلصاق التهم بالجناح السوري ولقد وصل الأمر بالأمن العراقي أن يفتعل كثيرا من الأحداث التفجيرية ويتهم بها الحكم السوري وحافظ الأسد بالذات.

ولما تم إنقطاع المياه كليا فترة من الزمن اقترحت الحكومة

العراقية إرسال الوفود إلى المراجع للشكوى على الحكومة السورية حيث قطعت ارزاق الناس ومنعت عنهم أكواب الماء.

ولما جاؤوا لزيارة السيد الصدر أثار فيهم مسألة أخرى مهمة ،وقال لهم انتم لا تقدرون قيمة المرجعية وامتداداتها في العالم لأنه يمكن للمرجعية أن تحل هذا الاشكال عن طريق المجلس الاسلامي الشيعي الأعلى في لبنان ورئيسه السيد موسى الصدر ولكنكم لا تريدون ذلك ولو أردتم لأراحكم هذا العمل كثيرا. وذهب الوفد شاكرا للسيد هذا العطف ومؤيدا هذا الطرح وقالوا سنضع المسؤولين في أجواء هذا الطرح وهذه الأفكار.

وعندما جئت إلى السيد الشهيد منفرداً حدثني بما قاله لهم وكان فرحا جدا بالمعلومات التي كنت قد وضعتها بين يديه عن قدرة السيد موسى ابن عمه لدعمه ولم تطل المدة يومين فقط حتى جاء وفد آخر يطلب من السيد بشكل رسمي الوساطة في هذا الموضوع.

وارتأى السيد الصدر أن يكتب رسالة للرئيس حافظ الأسد يشرح له فيها معاناة اخوانه العراقيين في مناطق الفرات الأوسط جراء منع تدفق الماء وجريانه في النهر وأخيرا طلب منه بما له من حق وبما لهذا الشعب من حاجة أن يفتح السدود لتعود المياه إلى مجاريها وفرح السيد لهذا التكليف وأرسل خلفي مع أحد الاخوة ليخبرني عن المهمة الجديدة التي تنتظرني.

وقد طلب مني أن أذهب على وجه السرعة إلى لبنان وايصال هذه الرسالة إلى السيد موسى ليوصلها بدوره إلى الرئيس الأسد ويصر عليه بفتح السدود المائية القائمة على النهر لإرواء عطش الاخوة العراقيين.

وفعلا أخذتُ أجرة الطائرة ذهابا وايابا وذهبت إلى مكتب الطيران لأحجز على بيروت

الا ان شركة الطيران لم يكن لديها حجوزات سفر الا بعد بعد ثلاثة أيام فاتفقت مع الشيخ حسين زين الدين والشيخ محمد شهاب بأخذ سيارة إلى الشام بثلاثين دينارا، وكان الوقت الذي تستغرقه الرحلة من الفجر حتى العصر .

وهيأت متاعي للسفر وقبيل الفجر بقليل جاء الشيخ محمد شهاب معتذرا عن الذهاب ولما أصبحنا على مقربة من الفجر ذهبت إلى بيت الشيخ حسين زين الدين القريب من بيتنا فقرعت الجرس فلم يُجب أحد. عندها توكلت على الله وسافرت وحدي في السيارة حتى لا أعطل المشروع.

ولم يطل مكوثي في سوريا طويلا بل ذهبت إلى بيروت مباشرة ووصلت ليلاً إلى حي النبعة فنمت في بيت الصديق الحاج حسين منصور من بلدة هونين المحب للسيد موسى وحدثته بأني جئت في مهمة أريد أن أذهب صباحا إلى الحازمية.

نمنا ليلتنا في سهرة مؤنسة مع الأخ أبو محمد صاحب المكارم وأخذنا صباحا في سيارته إلى الحازمية مع شريكه التجاري من آل يوسف ـ الجبين ـ.

انتظرنا حوالي نصف ساعة في مكتب السيد موسى وكان يوم السبت ولما أخبره المرافق بوجودي قام بتأجيل اللقاء إلى يوم الاثنين. إلا أن هذا التاخير لم يعجبني خصوصاً وإني مبعوث من قبل السيد محمد باقر الصدر المرجع المعروف[1]. وكان معي كتاب

---

(١) هذا التأخير لم يكن سببه وجود خلاف بين الشهيد الصدر والسيد موسى بل كان خلافاً =

(اقتصادنا) منقحا مرسلا للسيد حامد عزيزي الذي استضاف السيد محمود الهاشمي الهارب من عذاب الحكم التكريتي وهو من مقلدي السيد الصدر ومحبيه. وقد أنشأ دار نشر جديدة في بيروت معروفة بدار التعارف للنشر والطباعة .

توجهنا إلى دار التعارف. ففرح الحاج حامد بوصول كتاب اقتصادنا الذي أضاف السيد الصدر عليه اضافات مفيدة بعثه لدار الكتاب اللبناني التي تقوم بطباعة كتبه وقد أحب الحاج حامد عزيزي ان اتحدث مع صاحب الدار بالهاتف بأني جئت خصيصاً من النجف لهذا السبب.

وكان المرحوم الشيخ علي الفقيه قد رأى معي كتاب اقتصادنا عندما زرته في بيته مطلعا على احوال ولده الشيخ مفيد جارنا في النجف، وسألني عما في يدي فقلت كتاب (اقتصادنا) فتعجب من جرأتي بحمل الكتاب من العراق، وأنا بدوري استغربت منه هذا الخوف وهو في لبنان فكيف لو كان في العراق.

يوما السبت والأحد قضيناهما مع اخوان لنا تارة في الشياح وأخرى في حي النبعة ومرة في البيسارية حتى يوم الاثنين الساعة التاسعة صباحا فدخلنا على السيد في مكتبه الخاص وكان أول

= شخصياً بيني وبين السيد موسى ، وأحب هنا أن اذكر سبب ذلك بغية تلطيف الاجواء، فقد كنا قد اتفقنا ـ مجموعة من طلاب معهد السيد موسى ـ على أن يبعث لنا السيد بعد ذهابنا إلى النجف للدارسة بمبلغ مئة ليرة شهرياً لكنه لم يفِ بذلك ومع ذلك فإنا بعثنا له برسالة نخبره بوجود احد المشايخ المحتاجين فلم يرد عليها ، إلا اننا علمنا في نفس الوقت انه بعث بمبلغ من المال لأحد المشايخ الميسورين فلم نرتضِ هذا العمل مما اضطرني لأن ارسل له مرة اخرى رسالة فيها الكثير من العتاب وفي مقدمها بيتان من الشعر:

غنينا بنا عن كلِّ منْ لا يريدنا ... ولو كثرتْ أوصافُه ونعوتُه
ومَنْ صدّ عنّا حسبه الصدّ والجفا ... ومَنْ فاتنا يكفيه أنّا نفوتُه

اعتراض قمت به هو تأخيره لموعد الزيارة الذي قام به وقلت له: انت تعلم اني مرسل من النجف ومن ابن عمك، فاعتذر بسبب مواعيد سابقة وعن وجود بعض اقاربه الذي كان في المستشفى وقد ساد جو من الوجوم بيني وبين السيد موسى اولاً، ثم افتتحت الحديث وقلت له: بأنك استاذنا الكبير وأبونا وانت تعلم اني اخاطر في مثل هذه الرحلات فارحمني ايضا، ثم ذكرت له القصة كاملة وقدمت له الرسالة من الشهيد الصدر حول قضية سد الفرات ففرح عندما قرأ الرسالة وخصوصاً بأنّ طلب السيد باقر الصدر لم يكن بصيغة الامر وإنما بصيغة الطلب بفتح السدود.

ثم قال السيد موسى: «أنا حاضر» ولكن عليك أن تأتي غداً صباحا لأكتب لك رسالة لوزير الداخلية حتى تذاع الرسالة على في الاعلام، وعليّ إكمال الباقي.

بقيت ذلك اليوم في بيروت عند بعض الاصدقاء وفجأة أخبرتُ بأنّ الشيخ أديب حيدر يبحث عني وانه يريدني حالاً فذهبت إلى بيته، ووجدت عنده بعض المعارف فجلسنا جانباً وأخبرني بأن السيد باقر كلفه أن يلحق بي ويطلب مني عدم نشر الرسالة في الاعلام، لأنه بعد مسيري من العراق كان قد بعث برقية للرئيس الأسد عن طريق آخر الا ان البرقية صودرت ومنعت من الارسال فخاف ان تذاع الرسالة في الشام فتضطرب الامور ويحيكون حوله بعض الشبهات وربما مؤامرة، فاقتضت المناسبة توقيف الرسالة عن النشر فقط.

وفعلا ذهبت صباح اليوم التالي فأخبرت السيد موسى فتعجب من غدر هؤلاء القوم وصلافتهم.

بعدها طلب مني السيد موسى مرافقته يوم الجمعة إلى صور فقلت أنا حاضر غير ان الشيخ علي الفقيه تدخل لمصلحتي وهيأ على حسابه (تكت) الطائرة ذهابا إلى العراق وحجز ليلة السبت الساعة الثامنة مساء موعد الرحلة .

وبعد جولة في خدمة السيد موسى وبعد غدائنا عند الشيخ علي شور وبينما السيد موسى كان مشغولا مع بعض أصدقائه خابرت إلى بيروت فأخبروني بأن الحجز اليوم ليلاً وعليك الحضور لاستلام بطاقة السفر فأخبرت السيد بذلك وقدم لي سيارته الخاصة (الكادلك) وركبت مع السائق إلى بيروت.

ذهبت إلى مكتب السفريات وأكدت الحجز وأخذت بعض الأغراض واسرعت إلى المطار ولم يكن عنده حقيبة خاصة فأخذت بعض الحلويات في صندوق لأجل التمويه حتى اذا سئلت عن الأغراض أقول هذه أغراضي.

وطارت الطائرة قبل منتصف الليل ولم اصل إلى النجف الا قبيل الفجر، فنمت بعد الصلاة ولم اتمكن في النهار من الذهاب إلى الدرس لأمور كثيرة انتظرت حتى صليت المغرب والعشاء، وذهبت إلى الكوفة إلى منزل السيد محمد باقر الصدر الذي كان يسكن فيه في الليل ويعود في الصباح إلى النجف مع عائلته.

فوجئ رحمه الله بوجودي ففرح كثيرا. وجلست احدثه عن نجاحات الرحلة والتوفيق وذكرت أمورا كثيرة ومنها اهتمام السيد موسى بالموضوع كثيرا وكان حاضرا لإنجاح مشروع فتح السدود حيث الحاجة ملحة لشعبنا واخوتنا في العراق وحيث تدخل المرجعية الطموحة والناهضة، وهي بداية مباركة أن تقوم المرجعية بعمل كبير

فيه مصالحة بين الجناحين العربيين وفتح سدود الماء لإرواء آلاف العشائر العربية التي حرمت، الماء ولكن الحظ لم يحالفنا

وفي أثناء الحديث سألني السيد هل تعشيت قلت: لا، فأمر بإحضار العشاء وهذه أول مرة أتشرف فيها بتناول العشاء مع مرجع كبير مثل الشهيد الصدر، ونادراً ما كان يحصل ذلك مع بقية المراجع.

الدعوة إلى مرجعية السيد العلنية

نتيجة لتعاظم دور السيد الصدر واعتزاله العمل السياسي (المؤقت) وتفرغه للمرجعية وانصباب اهتمامه في دروس الخارج وفتح (البراني) لتعليم الأمة والرد على اسئلتهم التي لن يجدوا جوابها عند غيره ولا حلا لاشكالياتهم المطروحة.

كثر مقلدو السيد من الشباب الجامعي والمثقف. كما ذكرنا. وكان لا بد من طبع الرسالة العملية المخطوطة.

ولما كنت في لبنان عرضت فكرة طبع الرسالة على السيد موسى فأجاب: نعم، ولكن بشرط أن تبقى في حدودها العلمية وكان يقصد من هذا الكلام ان لا توزع للناس بل تعطى أولا للشخصيات العلمائية كمرحلة تمهيدية ثم تنشر بعد ذلك بشكل هادئ.

وفعلا قمنا. كمرحلة اولى. ونحن مجموعة ليست قليلة من لبنانيين وعراقيين وايرانيين وخليجيين وبدأنا نصرح بأعلمية السيد وكان بعض رفقائي قد قلد السيد الصدر في زمن السيد محسن الحكيم رحمه الله.

وأخيرا قرر السيد على طبع تعليق على رسالة منهاج الصالحين للمرحوم السيد محسن الحكيم ووصلت إلى النجف ووزعت على المدن، وقيل ان النسخة الأولى في مدينة البصرة بلغ ثمنها عشرة دنانير عراقية بزيادة عشرين ضعفاً عن قيمتها الحقيقية وذلك لقيمة ما

حققته هذه الرسالة من اقبال شعبي ليس له مثيل ،وهذا تعبير كبير عن كثرة مقلديه وحاجاتهم الماسة إلى الرسالة العملية. ثم بدأت الرسالة بشكل طبيعي فقل الاندفاع والتنافس وعادت تباع بقيمتها الحقيقة بحوالي نصف دينار عراقي.

نموذج من درس بحث الخارج
لسماحة السيد

كنا في درس السيد الصدر في مسجد الطوسي وكان إلى جانبي الشيخ محمد جعفر شمس الدين وكان من طلاب السيد الأذكياء والمندفعين إلى مرجعيته وبدأ السيد بعرض الدرس الاصولي العميق وطرح نظريات الآغا ميرزا ضيا العراقي وكان على جانب عظيم من العمق الفلسفي.

ثم بدأ يفصل هذه النظرية ويرد عليها فكرة بعد أخرى ونحن نتابع الدرس حرفا بحرف وكان رحمه الله من عادته اذا انهى شرحه التفصيلي يعاود الشرح باختصار حتى لا يفوت الطالب من الفكرة شيء. فكان درسه على الشكل التالي:

أولا: فكرة موجزة عن الدرس.

ثانيا: عرض الفكرة تفصيلا لإيضاحها.

ثم الرد التفصيلي عليها وربما يكرر الفكرة العميقة حتى لا يفوت الطالب شيء ثم ينهي البحث بعرض موجز وعندما تعودنا على شرحه بدأنا نلفظ أنفاسنا ونرتاح في كتابة الدرس .وعلى فرض أنه سبقنا في طرحها لفظاً فإنه سيعيدها لفظا ومعنى بالتلخيص وكنا أيضا مع هذا كله اذا فاتنا شيء يعوضه أحد طلابه النوابغ كالسيد محمود

الهاشمي الذي أصبح الآن رئيس السلطة القضائية في إيران. وكان الشيخ محمد جعفر شمس الدين من المغرمين بالسيد مثلي فأشار إلي عندما كان السيد يفصل ويجمل ويطرح ويرد ويناقش بشكل مدهش، يا شيخ عفيف تأمل، والله لا يوجد أعلم من هذا الرجل في احاطته وعمقه ولا يوجد مثل أخلاقه العلمية حيث لا يتعرض لجرح عواطف المراجع الكبار سوى تفنيد النظرية فقط.

وبعد أن كتب السيد الصدر كتابه القيم والمتقدم على زمنه بنصف قرن على الأقل والذي لم يكتب مثله في اللغة العربيةوهو (الاسس المنطقية للاستقراء) أدخل السيد النظرية النسبية لصاحبها (برنرد راسل) في علم الرجال وهو شيء لم يصل إلى فهمه أحد من قبل فهو رجل مبتكر ومتقدم ومحيط بعلوم عصره وسابق بفكره وطموحاته حتى المراجع المنفتحين.

ونحن من خلال درسنا عليه وعلى غيره وقراءة كتب غيره من المراجع الأقدمين رأينا السيد أكثر إحاطة وعمقا وأكثر فهما لنص المعصوم وكان يملك من الكشف والرؤيا المتقدمة ما لا يوجد في غيره.

ففكر السيد الشهيد رحمه الله لا يضاهيه فكر في عصرنا ورغم قراءتي لكثير من المفسرين وأصحاب الفكر الفلسفي لم يفرض علي أحد فهمه ورأيه واحترام رأيه الا الشهيد لا لأني تلميذه فحسب وهذا كان قبل النضج ولا شك فيه, ولا شك اني متأثر بآراء استاذي كثيراً غير اني بعد قراءتي لأكثر الذين كتبوا في الفلسفة وطرحوا أفكارهم المعاصرة على ما فيها من سعة وشمول ولطائف غير انها لم تأسرني وبالتالي بقيت على ما انا عليه من اعلمية السيد الفقهية والاصولية والفلسفية بل رأيته يزيد عليهم حتى فيما هم متخصصون فيه وهذه ميزته رحمه الله.

ومن هنا عندما كتب الاسس المنطقية للاستقراء حلق في الاجواء عالياً بحيث لم يستطع احد بعد من الوصول إلى هذه المساحة الراقية من الأفكار ولو اتيح له ان يترجم إلى اللغات الحية الأخرى لكان لهذا الفكر شأن وأي شأن وكانت هناك مبادرة لترجمة الكتاب بإشراف الدكتور زكي نجيب محمود لو تمت لعمت الفوائد العامة لهذا الكتاب ولتحقق ما سمعته من استاذنا العظيم عندما قال لنا بعد صدور هذا الكتاب لم نعد نستورد الافكار الاخرى واصبحنا نصدر الأفكار الاسلامية إلى الغرب.

ولكن كما سمعت ان المحاولة وصلت إلى منتصف الطريق لأن الاستاذ المترجم كان بحاجة ان يتتلمذ مدة ثلاثة اشهر على السيد وكان على استعداد المجيء إلى النجف لهذه الغاية لإكمال الترجمة اللائقة ولكن المبادرة توقفت عندما انطفأت شعلة العلم باستشهاد السيد ورحيله إلى عالم الملكوت ومرافقة أجداده في جنات الخلد.

وعلى كل فقد برزت مرجعية السيد الصدر في ظل مرجعية استاذه السيد الخوئي ومرجعية السيد الخميني الذي كان مقلدوه من الايرانيين عموماً، أما العرب فالأكثرية الساحقة كانت تقلد السيد الخوئي.

ولما سمع حواشي السيد الخوئي بالضجة الهادئة حول مرجعية الصدر لجأوا إلى طرح استفتاء بيد الشيخ عبد الأمير قبلان ومنه إلى السيد باقر الصدر وذلك بعد وفاة المرحوم السيد الحكيم يسأله فيه عن رأيه فيمن يجوز الرجوع اليه أو يجب الرجوع اليه من المراجع الموجودين في النجف وقم بعد وفاة الحكيم. فكتب السيد الصدر يومها بجواز الرجوع إلى السيد الخوئي وإن من يقلد السيد الخوئي فذمته بريئة. ووزعوا عددا كبيرا من هذا الاستفتاء ليقولوا للناس إن

ما يشاع من أن السيد الصدر يدعو لمرجعيته هو امر غير صحيح وان السيد باقر نفسه يدعو إلى مرجعية السيد الخوئي وهذا نصه امامكم، وما تسمعون من امور اخرى لا قيمة لها .

وكان رد بعض الطلاب جيدا ولطيفا وهو من أن مجرد عرض هذا المنشور الموقع باسم السيد محمد باقر الصدر هو لمصلحة السيد الصدر ودعاية له. اذ لو لم يكن هذا السيد في حجم المراجع ما كان لهذا السؤال ولا لجوابه أي معنى .

غير انّ المراجع في النجف وقم وغيرهما من الاقطار الاسلامية في مرتبة عالية من الزهد والورع والتعفف عن حطام الدنيا وكان بعض المراجع اذا زار احدهما الآخر او التقاه في طريق يقبل أحدهما يد الاخر فيقبل الثاني يده وهم في درجة عالية من السمو الروحي والنفسي وهكذا كان السيد الشهيد الصدر يتعامل مع مراجع الامة بروحية عالية من الاحترام حتى انه لم يقبل يوما ان يسمع قصة لطيفة يذكرها السيد الخوئي عن نفسه ولما قيل له هو يذكرها ويتحدث فيها قال: منه لطيفة ومنا وخصوصا هنا ليست لطيفة. وهذا منه رحمه الله احتياط زائد وتوجس حتى لا يتسلل بعض ضعاف النفوس فيشي على السيد بأنه يتفكه بكلام استاذه وبأنه كان فيه قلة تأمل للأحكام والا فهي لطيفة لو خليت عن هذه التوجسات.

كما رفض ذات يوم عندما اتفقت الجمعيات الاسلامية الخيرية في النجف الاشرف بايعاز من الدولة ان تقيم احتفالا دعما للمحاصرين في مخيم تل الزعتر المحاصر من قبل الكتائب والقوات اللبنانية وشارك في الاحتفال السيد الخوئي ممثلاً بالشيخ محمد حسين الصغير وهو شاعر وأديب معروف والسيد الصدر ممثلاً بالشيخ حسن طراد وهو عالم وشاعر معروف ولما جيء اليه بالدعوة وقرأ

كلمة سماحة المرجع الاعلى السيد الخوئي وتحتها كلمة سماحة المرجع الاعلى السيد محمد باقر الصدر قال هذا غير لائق اكتبوا المرجع الاعلى السيد ابو القاسم الخوئي والمرجع السيد محمد باقر الصدر. وسألته يومها عن المشاركة بهذا الحفل بقصيدة حيث الالحاح علي من المرحوم السيد علي بدر الدين فقال ما دام الدولة ليس لها اسم لا مانع ولو كانت الدولة هي التي أوحت بذلك لأن هذا تأكيد على كرامة الجميعات الدينية واحترامها في المجتمع ولا مانع منه لو علمنا انه مضغوط عليها.

ولكن المنافسة الحادة ليست بين المراجع وانما هي بين الحواشي فقد كانت الحواشي احيانا هي التي تحرض المرجع على الآخر حتى تصل المراجع إلى حالة الجفاء لكثرة القيل والقال والأخذ في الحديث غير المسؤول.

وكانت نظرة حواشي المرجعيات إلى مرجعية السيد الصدر مع كل لطافة السيد بعلاقته مع المراجع واحتياطه كما ذكرنا في ذكرهم وعلو شأنهم مع ذلك كانت للحواشي مصالح تقوم بالتخويف من مرجعية السيد الصدر الصاعدة وكانت لا تتورع ان تتهم السيد الصدر بالموبقات حتى تضعف مرجعيته.

وظل بعض موزعي شهريات المراجع يتعاملون مع السيد الصدر انه طالب مثل الطلبة الآخرين فيقدمون له شهرية قيمتها خمسة دنانير كباقي الطلبة، ومرة قال لي وهم يسلمونه هذا المبلغ: تأمل هذا التعامل لا يريدون الاعتراف بأني اوزع كل شهر أكثر من عشرة آلاف دينار على الطلبة ولا زالوا في هذه المعاملات المحقرة.

ولا شك ان هذه الحواشي كانت تمنع المرجع من أخذ موقف من شأنه دعم السيد الصدر في ايام الشدائد وهذا الذي كان السيد

يتأذى منه وكأن دعمه يوصلهم إلى نار جهنم بينما هو واجب شرعي واجتماعي وحوزوي على الأقل ونحن نرى ان بعض النقابات كالاعلاميين والفنانيين والاطباء اذا تعرض احدهم للاعتداء من طرف خارجي او من الدولة يقوم جميع الافراد والعناصر بالدفاع عن زميلهم فهلا كان العلماء في الحوزة مثل هذه النقابات التي تتضامن مع أفرادها وعناصرها.

وذكر لي رحمه الله قصة بأن بعض المؤمنين في كربلاء كان له زوجة معلمة فرضوا عليها الالتزام بالدخول إلى نقابة المعلمين وبالتالي فرضوا عليها ان تذهب كل يوم بعد نهاية الدروس للقيام بنشاط حزبي تربوي في بعض المراكز التابعة للحزب وجاءني هذا المسكين وسألني عن رأيي واخبرته بحرمة الانتساب إلى حزب البعث الحاكم وذهب إلى زوجته وأخبرها عن الحكم الشرعي وبضرورة الالتزام بذلك وذهبت الزوجة إلى ابيها وهو من تجار السوق المقلدين لبعض المراجع الموجودين في النجف فأخذ معه مبلغاً من الحقوق وسلمها للمرجع المعروف وذكر له قصة ابنته ومشكلتها مع الحزب الحاكم فقال له انا لم احرم الدخول في حزب البعث وحتى الحزب الشيوعي لم احرم الدخول فيه فجاء الأب إلى ابنته وصهره وأخبرهما حرفيا بعدم الحرمة وقال لهم كيف تقولون بالحرمة ؟! وبعدها جاء الزوج المسكين إلى السيد الشهيد ثانية فأخبره بفتوى ذلك المرجع فقال له: تستطيع أن تستعمل حقك الزوجي في هذا المورد فتجبرها على عدم الذهاب حتى لا تصطدم مع عمك.

هذه المشاكل كانت تعقد الفكر المنطلق المستوعب للهموم العامة.

إلا ان هذا السلوك السوي من الشهيد الصدر جعل الشارع

العراقي العراقي يندفع نحوه اندفاعة كبرى وكان المؤمنون المثقفون لا ينقطعون عن زيارة السيد من كل أنحاء العراق. وكان يوم الجمعة مناسبة للزيارات والمواعيد واللقاءات بالسيد الصدر وكان الجميع يتحرق إلى صلاة الجماعة خلف السيد وطولب السيد أكثر من مرة، لماذا لا يكون لكم صلاة جماعة ولو في مكان صغير كي تحل كثيرا من عقدة اللقاء بكم من الشباب المتعطش للقائكم والصلاة خلفكم وكان السيد يعرف حجم علاقة الشباب به وحجم العاطفة الجياشة ويعرف من جانب آخر حسد المشايخ وجنون السلطة وتوجساتها من التفاف الشباب حول السيد لأن طرحه السياسي مخيف في بلد قائم على قمع الحريات.

ولكن السيد اخيراً، وافق على صلاة جماعة في مكتبة في النجف القديم في حي العمارة حيث لا يزال فيها مكتبة عامة اسمها الشوشترية وقاعتها تسع لحوالي ماءتي مصلي ولم يكن فيها مرافق ولا مغاسل وهي غير مؤهّلة لذلك، الا من الماء الذي يمكن للانسان ان يتوضأ فيه خارج المكان .

ولما بدأ السيد بصلاة الجماعة كنا نعجب كيف عرف الناس. واذا بهم يأتون إلى الجماعة من كل (فج عميق) وكان يصلي الظهر والعصر فقط .

ولدى سماع الأمن العراقي بهذا التحرك الجديد للسيد وهو تحرك عادي جدا لأنّ كل المراجع لها مساجدها وبعضهم ورث مكاناً في باحة الحرم العلوي عن أبيه ولم يكن فيها برأيهم أيّ استفزاز للنظام، ومع ذلك فإن هذا المكان الصغير لم يرق للنظام ولا لبعض المغتاظين من هذا العمل أن يستمر فتوافقت ارادة الدولة والنظام على تفريق الجماعة وإغلاق المكتبة مع أن النظام يومها كان يحاول التناغم مع الشهيد الصدر.

المنام

بعد أن جئت من لبنان للمرة الاولى او الثانية (لا أذكر) رأيت في المنام رؤيا كوضح الشمس ولا أزال احفظها كما رأيتها في بيتي في النجف الواقع في الجديدة قرب المدرسة اللبنانية الذي كنت ادفع اجاره كل شهر عشرة دنانير ثم بعد ذلك نزل إلى تسعة.

رأيت في تلك الليلة اني دخلت إلى مجلس ومعي ولدي الأكبر محمد وكان يومها صغيرا في حدود الاثني عشر سنة وكان مدخل المجلس من دربونة من درابين النجف ثم ندخل من بوابة في زاروبة ثانية قصيرة الطول حوالي ثمانية أمتار ثم إلى فسحة دار واسعة فيها ماء وشجر وفيها بسط وفرش ويوجد مجموعة من السادة والمشايخ والماء يجري في قنوات صغيرة من جانب إلى آخر والبساط على جانبي الماء والعلماء على مجالسهم من الجانبين وثم رجل مهيب الطلعة يميل إلى السمرة وكان السيد الصدر أيضا موجوداً بهيبته وقبل بدء المجلس جيء بالطعام فأكلت من هذا الطعام وكأنه من طعام أهل الجنة ولم أجد في حياتي كلها طعاما مثل هذا الطعام وبعد انتهاء الطعام بدأ المجلس وجاء قارئ عزاء جيد وفي غمرة المجلس وجو البكاء والتأثر رأيت أن ولدي محمد كان يلعب مع شخص اسمه مصطفى همام من بلدنا ويوجد فارق في العمر بين مصطفى وولدي محمد فصحت في ولدي بدون ان يعلو صوتي بأنك لا تعلم الآن انك بين يدي الامام المهدي عليه السلام ثم امسكت بيده

وأخرجته من المجلس منعا للتشويش وذهب ايضا ابن قريتنا مصطفى الموجود في أمريكا وخرجت بإبني حياء لأن ذلك منه ومن مصطفى كان تشويشا على المجلس ثم استرحت قليلا حتى اطمأنيت بأن القارئ قد انتهى من القراءة ثم عدت فوجدت الباب مغلقا وكان قبل ذلك مفتوحا على مصراعيه فقرعت الجرس فخرجت امرأة وفتحت الباب ولما نظرت اليها كانت سافرة عن وجهها فقط ولكن لم أر في حياتي مثل هذا الجمال وكأنها من الحور العين نزلت لتوها من الجنة فلما رأتني أريد الدخول إلى نفس المجلس قالت انتهى الدوام ورفعت يدها علامة على ختم المجلس وأنه لم يبق أحد، مع اني لم ابعد عن البوابة كثيرا أي اني لم أرّ في المنام جماعة خرجوا من الباب الرئيس الذي دخلت وخرجت منه.

وبت فرحا من هذا المنام وكنت محتاجا إلى من يساعدني في تفسيره وقصدت السيد مرتين وثلاثا ولم أتمكن من الانفراد به.

وذات ليلة بعد صلاة المغرب والعشاء جئت إلى بيت السيد فانتظرته قليلا فقالوا سيخرج فلما خرج إلى البراني قال بأنه يريد حضور فاتحة قريبة في نفس المكتبة التي كان يصلي فيها جماعة فذهبت معه حتى دخل وقرأ عشرا من القرآن وخرج وكان يشارك رحمه الله في مثل هذه المجاملات لمجرد علمه بأهل الفاتحة وكان رحمه الله يمشي مشية هادئة كأنه مدرب عليها عسكريا وما رأيته يوما غير مرتب في عباءته وثيابه وكذلك كان غيري ينظر إلى ما انظر اليه من السيد. وسايرته حتى دخل بيته الثاني الذي كان إيجاراً من ورثة المرحوم الشيخ المامقاني . وقبل ان يصعد إلى مكتبته سألني هل لكم حاجة قلت نعم فجلسنا جلسة سريعة في مكان غير معتاد للسيد ،وحكيت له المنام فقال ما يلي:

ان الامام المهدي(عج) هو جهتنا وإن الطعام الذي اكلته هو درسنا وان الضجة من ولدك ومن هذا الرجل هي عبارة عن تشوشات عليك لأنك معنا وان عدم فتح الباب لك مرة أخرى بأنك سوف لا تطول اقامتك في النجف الاشرف وانما تذهب وحدك لأن المرأة التي رأيت كانت تمثل الدنيا ولا تخف فإنه لن يصيبك في النجف شيء.

فرحت من جانب لهذا التفسير بأنني على هدى وعلى خط الامام المهدي(عج) وأن السيد الصدر استاذي هو نائب الامام بحق فأنا على يقين من عملي وبراءة ذمتي ولكن الذي غمّني انني سأحرم من هذا الطعام الذي لا مثيل له وسوف أحرم من جوار الامام علي الذي لا مثيل له أيضا. وبالحقيقة كان ما قاله السيد افضل تعبير لهذه الرؤيا حيث لم أحصل على زاد علمي بهذه الطيبة وأنّى لنا بمثل السيد وانني بعد سنتين اصبحت وكيلا عن السيد في بغداد ولم يقفل الباب من جهة النجف وانما قفل الباب من جهتنا نحن حيث القينا رحالنا في منطقة (الحرية) القائمة على جنوب غربي الكاظمية مدينة الامام موسى الكاظم(ع) وسوف نأتي على ذكرها.

لكن المهم في المنام ايضا ان المشوشين كانوا دائما يعكرون لنا صفوة الحياة لأننا نقول بمرجعية الصدر فلا المرجعية وحواشيها راضون بدعوتنا لمرجعية السيد ولا الدولة واجهزتها أيضا راضون بذلك فنحن أمام أمرين أحلاهما مر.

ولكن أكثر المشوشين على الشيخ عفيف عادوا بعد ذلك إلى رشدهم وصاروا يزايدون عليّ. ولكن ذلك بعد استشهاد المرحوم السيد الشهيد في ٩ نيسان ١٩٨٠!!

الشيخ محمد جواد مغنية

الشيخ محمد جواد مغنية عالم لبناني فقيه مجتهد عاش مرارة الحياة من أجل تحصيل العلم وأسس مكتبة فكرية حملت اسمه وآماله وجاهد كثيرا لرفع لواء العلم والمعرفة وكان يعجبه كثيرا الطالب المجد والنشط ويشجع هؤلاء ولا يقبل الطالب الكسول.

الشيخ مغنية مغرم بالكتاب الناضجين والمراجع المنفتحين والعلماء المجاهدين لا يعرف الكلل في حياته حتى لو دخل المستشفى كان لا يترك الكتاب والدفتر والقلم. والحديث عن شخصيته ليس محلها الآن حيث إننا في حلقات التعارف واللقاء مع الشخصيات المهمة التي عرفت عبقرية الشهيد الصدر مبكرا».

وعندما زار الشهيد الصدر لبنان في المرة الأولى في بداية الستينات التقى بالشيخ مغنية وكان الشيخ يومها على علاقة جيدة بالسيد موسى الشاب الالمعي المديد القامة الحلو اللسان الصبيح الوجه الممتلئ علما.

وكان لهذه العلاقة اثر على صداقات السيد الشهيد الصدر وتمتينها، وفي آخر سنواته قرأ الشيخ مغنية فلسفتنا مبكراً وأثنى على مؤلفه وعندما التقى بالشهيد صدق الخبرُ الخبر.

وعندما زار النجف تبادل الزيارة مع السيد وتأكدت الصداقة مع السيد باقر وانقطعت مع السيد موسى وكنا اذا سألناه عن السيد باقر

يتحدث عنه بإعجاب وإكبار، وكان السيد باقر يتعامل مع الشيخ باحترام كبير ويعده من المجاهدين والمدافعين عن المذهب الحق.

وذات يوم شنت حملة على السيد الصدر مغزاها أنه ليس فيلسوفاً وأن السيد الطبطبائي هو الفيلسوف، والسيد الصدر كالولد بالنسبة له. وبعد إشاعة هذا الجو توجهنا لسماحة الشيخ مغنية وسألناه عن الفرق بين السيد الصدر والسيد الطبطبائي صاحب تفسير الميزان. فقال الفرق بينهما كالفرق بين المجتهد والمقلد، فالسيد الصدر هوالمجتهد في الفلسفة والسيد صاحب الميزان يفهم الفلسفة، ولكنه مقلِّد بنظري. وقد أشعنا هذا الفهم بين الطلبة فسقط المشوشون والمغرضون، لما لرأيه من قيمة كبيرة في أوساط الطلبة في النجف الاشرف.

والشيخ مغنية مغرم أيضا بالأماكن الهادئة والبريئة اذا كانت صالحة للجلوس والسكن يهاجر اليها ويبقى فيها مدة يكتب ويتأمل وكم له من قصة وقصة في هذا الاتجاه.

زار النجف في سنة ١٩٧٣ ومعه رفيقه وحبيبه السيد هاشم معروف استاذي في المكاسب وهو عالم قدير ومجتهد واستاذ دراسة السطوح بلا منازع مشهود لفهمه وقدرته ولم أر أقدر منه في درس المكاسب في لبنان حسب اطلاعي الشخصي، وعندما علم السيد الصدر انهما نزلا في فندق النجف الجديد بعث وفدا لزيارتهما فوراً وأوْلم على شرفهما مأدبة غداء مع أن أوقاته لا تسمح لمثل هذه الولائم. وكان السيد هاشم أيضا على نفس المستوى من العلاقة مع السيد.

كلا الزائرين (مغنية والحسني) عالم مجتهد يحترم العلماء ويقدر

المبدعين وكلاهما رأى في السيد باقر امنيته وكلاهما علق آمال الأمة على مرجعيته الواعدة.

ومثل هؤلاء لا يؤيد لأجل منصب أو مصلحة لأنهما بعيدان كل البعد عن ذلك وانما يتحدثون بلسان المعرفة والعلم والموضوعية والحق والإخلاص لله تبارك وتعالى.

والظاهر حسب ذاكرتي امتنع الشيخ والسيد عن تلبية أي دعوة لطعام غداء أو عشاء وكان السيد هاشم قد قال للشيخ مغنية «عندنا شخص عزيز علينا اذا دعانا نلبيه وهو الشيخ عفيف النابلسي» الا انه عندما وصلا كانا قد غيّرا رأيهما حتى لدعوة الشيخ عفيف، والدعوة الوحيدة التي قبلت هي دعوة السيد الصدر الذي لا يرد له طلب.

وكان الشيخ مغنية يعترف للسيد الصدر بالتفوق الثقافي والفلسفي ويراه فيلسوف المسلمين والمثقف الأكبر بلا منازع وربما كان يتحدث عن جوانب أخرى أيضاُ كالاصول والفقه، وأظنّ ان السيد الصدر كان في تلك الفترة مشغولا بالأسفار الأربعة ومحلقا في سماء الفلاسفة حتى اسكت أفواه الجميع من متقدمين ومتأخرين وماديين واسلاميين الهيين. ولكن عندما جاء الشيخ إلى النجف واستمر فترة زمنية وكان يباحث السيد ويطارحه كل يوم وكان يستمع إلى السيد كل يوم والى الاسئلة، وكان جواب السيد دائما هو الفصل الذي لا فصل بعده، عندها رأى بأم عينيه وسمع بأم اذنيه الدفق العلمي للشهيد، فقام بنشر آرائه بحق السيد الصدر وقال عنه ذات يوم: بأنه اعلم علماء الدين على الاطلاق بلا منازع، وكان ذلك في بداية المشوار الثاني على ما أذكر وقد كنت بجنبهما عندما سمعت هذا الكلام، فالسيد قرب الباب والشيخ إلى جنبه وأنا ثالث استمع.

وقد أخبره في حينها انه قد جاءته رسالة من بعض الاساتذة فيها كثير من الالم، لأن سارتر الفيلسوف الفرنسي وصاحب مذهب الوجودية، نشر في الصحف العالمية مقالاً ينكر فيها وجود الله وأنه وجه دعوى إلى ندوة علنية لكل علماء الاديان مع تحمل كافة نفقات الرحلة ذهاباً ومجيئاً إلى فرنسا. ولما لم يرد عليه احد اعتبر نفسه قد ربح الدعوى.

فأجاب السيد اذا كان الأمر بهذه البساطة فنحن أيضاً نوجه له دعوة مجانية ومهما كانت قيمة التكاليف، واذا لم يأت نكون قد ربحنا الدعوة ثم قال للشيخ: لا تخف. فرد عليه بأنه لا يوجد غير هذا الجواب.

المشوار الثاني

عندما احتدمت الحرب الأهلية في لبنان سنة ١٩٧٦ خاف الشيخ مغنية على كتبه ان تحترق وقبل ان يجلد كتابه أصول الفقه في ثوبه الجديد حمله في الحقيبة وصمم مغادرة لبنان إلى النجف بعدما أمَّن لزوجته أكثر ما تحتاج اليه مدة سنة كما قال لنا.

ولما علم السيد محمد رضا الحكيم مدير وولي مدرسة دار الحكمة التي اسسها المرحوم المرجع السيد محسن الحكيم ذهب لزيارة الشيخ بايعاز من بعض العلماء عندما علموا أن الشيخ مغنية نزل في الفندق، فذهب السيد محمد رضا ودعاه إلى المدرسة وعين له غرفة في الطابق الأول وفرشها بالسجاد الثمين وهيأ للشيخ (الأعزب) كل حاجاته من حرامات وفرش وجميع آلات الشاي وأصبح الشيخ طالبا كبيرا ومجتهدا في دار الحكمة وكنا ايضا في هذه المدرسة، ولنا فيها غرفة لا يوجد فيها غير حصيرة صغيرة جدا استعملها للتدريس وكتابة الدروس. وبعد استقرار الشيخ بالمدرسة خصه السيد الصدر بوفد خاص يزوره باسمه وكان السيد الصدر. كما ذكرنا. قد لمع اسمه وأصبح مرجعا له مقلدوه وهم في حالة نمو متصاعد.

استغل السيد الصدر وجود الشيخ في النجف ليطلب منه (تفكيك) عبارة منهاج الصالحين والتعليق عليها ودمج الأصل والشرح

في عبارة واحدة بشرط التسهيل على القارئ وبنظر الشهيد الصدر لا يوجد رجل اقدر على هذه المهمة من الشيخ محمد جواد المشهود له بسلاسة التعبير وإقناع القارئ.

أصول الفقه في ثوبه الجديد

كان الشيخ مغنية حريصا على كتابه الجديد حيث لا يوجد له نسخة أخرى الا هذه الملازم التي جمعها وجلدها في النجف وأفضل سوق لهذا الكتاب هو الحوزة في النجف الأشرف وقم المقدسة وبالطبع ليس في وارد الشيخ اعادة طباعة الكتاب في النجف لأن لبنان اقدر على الطباعة من النجف.

وأول من قرأ الكتاب هو السيد الصدر وبعد يومين رده دون تعليق وسمعت منه: انه قرأ منه بعض الفصول.

والقارئ الثاني هو الشيخ حسن طراد الذي بقي عنده ٤٨ ساعة وهذا هو الشرط الذي اشترطه الشيخ لمدة قراءة الكتاب كل طالب علم يومين، ولم يعترض عليه أحد، لا السيد ولا الشيخ حسن وعندما يرد من عمالقة مثل السيد وطالب حافظ الاصول مثل الشيخ حسن طراد ولم يعلق أحد بكلمة يعني ان الكتاب لا يوجد فيه أي اشكال.

ولما سلمني الكتاب وكنت ثالث القوم قال لي: يومين. قلت لا: قال كم؟ قلت حتى انتهي، ولا اعلم متى، وكانت العلاقة في بدايتها، فتململ ثم وافق بشرط العجلة كي يستفيد العدد الأكثر من الطلاب ايضا ولم اوافق على ذلك يومها، وكان الشيخ قد افتتح الكتاب بعنوان اقرأ على مهل فقلت كيف استعجل وانت تقول اقرأ

على مهل فسكت مع أنه كان يقصد غير ذلك لكنني أحببت ان اثير فيه هذا الاشكال اللفظي !

وأخذت الكتاب وصادفتني عطلة طويلة فكنت اتفرغ للكتاب كلما انهيت دروس طلابي في الليل والنهار وكنت اجلس في كل ليلة ست ساعات إلى سبع بقراءة متأنية ربما لا اقرأ فيها الا ورقات قليلة.

وقد اعجبني اسلوب الكتاب وايضاح المطالب ومن اليقين أن بعض المطالب التي درستها في الكفاية لم افهمها الا بعد قراءة كتاب الشيخ. ولحبي للكتاب احببت ان يظهر مني شيء تجاهه وكان القلم لا يفارقني فأنا اقرأ للمعرفة والنقد أيضا وكان الشيخ رحمه الله قال لي انا لا اريد رأي أحد لأني اعتز برأيي وفهمي ولكن اذا كنت عالما حصّل لي اشكالات على الكتاب او على فهمي للنص.

وسددني الله عزوجل فاهتديت على اول اشكال ثم فتحها الله علي فحصلت على ثلاثة اشكالات مهمة ولاحترامي لمقام الشيخ وعلمه جهلت نفسي وذهبت للشيخ حسن طراد وأظهرت له ما حصلت عليه من اشكالات حسب الأرقام فتعجب كيف فاتته هذه النقاط ولم تظهر أمامه، فقلت له لعل العجلة هي السبب في القفز عن الاشكالات، قال: ربما، ثم أكد عليها ودعا لي بالتوفيق واكتفيت بهذا الدعم عن إعلام السيد الشهيد بذلك.

وبعد عشرة أيام حملت الكتاب وذهبت إلى الشيخ في المدرسة المذكورة وجدته على الباب مع بعض اخواني ذاهبين لبيت السيد الصدر وكان منهم السيد محمد مرتضى الذي يكن للشيخ احتراما كبيرا.

ولما رأى الكتاب سألني عما اذا كنت قد انهيت القراءة فقلت له: لا ولكن عندي بعض التوضيحات من سماحتكم، فقال أتريد ان تناقش؟ قلت استغفر الله انا طالب وانت عالم وانما أتيت لأستوضح بعض ما خفي علي، فقال ضعه على الطاولة واترك الارقام والعلامات وتعال معنا، فوضعت الكتاب كما طلب، ثم جئت معهم إلى بيت السيد وكان بيت السيد يعج بالطلاب والضيوف واصحاب الحاجات من كل حدب وصوب ثم افترقنا عند صلاة الظهر.

عدت في اليوم التالي لأخذ الكتاب واعرف الجواب فقال الاشكال الاول وارد، والاشكال الثاني الاحسن ان يرد، والثالث لا يرد، فقلت: الثالث كالأول وارد أيضا. وبدا على سماحة الشيخ علامة على الاحترام والتقدير لي وبدأ يعاملني افضل مما كان يعاملني به وينظر اليَّ نظرة علمية وكنت قد بينت له مطلبا خفي عليه وقال لي لا يوجد ذلك، فقلت له: هو موجود ولكن انت لم تره. فتعجب حينما قدمت له كتاب الوسائل ورأى الحديث بكل وضوح.

المهم ان الشيخ حط رحله في النجف مزرعة العلم ومصنع العلماء وهو أولى مني بتاريخه ومستقبله.

مشروع كتاب الفتاوى الواضحة

بدأ الشيخ محمد جواد مغنية في صناعة الكتاب الجديد والفريد من نوعه الفتاوى الواضحة وبدأ (يفكك)[1] عبارات الرسائل العملية الفقهية والتي تعود صياغاتها لتاريخ القرون الوسطى، وهو أمر صعب يحتاج إلى أكثر من مصنع لتذويب هذا الكم الهائل من العقد اللفظية وصياغتها من جديد بأسلوبه السهل الممتنع.

بدأت رحلة العذاب النفسي والسير على هذا الطريق الصعب الذي قلّما طرق بابه أحد من العلماء، حتى أن قلم الشيخ الذي كان طيّعاً لكل المطالب الاصولية والفقهيّة وغيرها أصبح يئن من هذه الالفاظ المعقدة والتي لا تحوي في داخلها الا معنى عرفيّاً وسهلاً على أي انسان عامي. والذي يقرأ او يدرس هذه الرسائل العملية يحسب أنه أمام جبل كبير من المعاني مع أنّ الأمر غير ذلك.

وهكذا بدأ الشيخ على مهل، وكتب على مهل، وكان السيد محمود الخطيب مساعد السيد الصدر يأتي كل يوم ليأخذ ما كتبه الشيخ في الليل ليقرأه السيد باقر وليشير إلى ما يريد من قبول أو رفض لجملة او عبارة.

---

(١) تعبير يفكك يدل على مدى صعوبة قراءة هذه الرسائل من قبل الناس والشيخ مغنية حاول أن يبسطها على طريقته الخاصة.

اربعة اشهر قضاها (شيخ العبارة) وصاحب النفس الطويل في رحلة غير مضمونة النجاح في البداية الا ان نتائجها كانت باهرة.

ولكن ما فعله الشيخ مغنية بالتحديد هو أعادة صياغة العبارات الفقهية بأسلوبه الخاص إلا ان الشهيد الصدر هو الذي أعاد من جديد كتابة رسالته العملية الخاصة الفتاوى الواضحة وأذكر ان الشهيد قال لي يوماً إن ما كتبه الشيخ محمد جواد لم يكن سوى عشرة بالمائة من مجموع العمل، والباقي كان علينا. وكان هذا الحديث على عجالة، لذلك فإنّي أظن أنّ ما قدّمه الشيخ جواد كان أكثر من ذلك.

وأذكر بالمناسبة ان السيد محمد رضا الحكيم كانت علاقته بالسيد الصدر سيئة وكذلك في اخيه السيد محمد باقر الحكيم، والسبب كما قيل بأن السيدين من اقطاب حزب الدعوة وهو لا يحب الاحزاب لا حزب الدعوة ولا غيره.

ورغم ان السيد الصدر أفتى صريحاً بمنشور وزع بالحوزة بحرمة انتساب طالب العلم لأي حزب اسلامي او غير اسلامي، مع ذلك بقي السيد محمد رضا على حنقه من السيد الصدر.

واذكر انه بمناسبة مرور سنة على وفاة والده السيد محسن الحكيم أقيم له مجلس عزاء عن روحه في باحة المدرسة الخارجية وهي كبيرة جدا، وكانت مملوءة بمئات العلماء والطلاب والشخصيات الاجتماعية وجاء السيد الصدر لحضورها وكان السيد محمد رضا واقفاً على الباب يستقبل المعزين فلم يعر الشهيد الصدر أية اهمية اضافية مع انه هو المرجع الوحيد الذي جاء لحضور الفاتحة، أما باقي المراجع فقد بعثوا من يمثلهم مندوبين عنهم،

وصادف اني كنت جالساً في هذه الفاتحة بوجه سماحة السيد الصدر فكنت اتأمله في لحيته وتقاسيم وجهه وسعة جبهته وهذا الصمت العميق الذي يخفي تحته عقلا مفكرا وقلبا طاهرا وروحا تدرك كل معاني الحياة وثقل المسؤولية وهموم الاسلام والمسلمين فتفرّست فيه الأمل والمستقبل الواعد لأمتنا الاسلامية.

ولم يكتفِ السيد محمد رضا الحكيم بهذا الامر بل تعداها ليتصرف مع الشيخ مغنية تصرفاً ليس فيه لياقة وذلك عندما علم بأن السيد محمود الخطيب ومعه الخادم ينقلون بعض المصادر الفقهية مثل مصباح الهمداني ومجموعة من الكتب التي يراها الشيخ مغنية مفيدة لتسهيل تراكيبه وصوغ عباراته.

كان السيد محمد رضا ومساعده الشيخ عباس بهبهاني ينظرون إلى اتباع السيد الصدر بحنق ثم تصاعد هذا الحنق عندما تأكد لهم ان الشيخ مغنية يكتب ويساعد السيد الصدر وأنه على علاقة قائمة وقوية به الآن وفي كل صباح وهو في ذهابه إلى المدرسة يقوم بزيارة السيد الصدر.

عندها عقد العزم على أخذ الغرفة من الشيخ مغنية تحت عنوان كثرة الطلبة والوقفية لا تساعد على البقاء طويلا من اجل براءة الذمة لنا، وعلى الشيخ ان يخرج إلى مكان آخر.

إلا أن الشيخ محمد جواد رجل غني مالاً وجاهاً وكل المراجع جاهزون لدعوته في بيوتهم ولكن الشيخ يؤثر الوحدة حيث يخلو للقراءة والكتابة وهذا طبع معروف وقديم عند الشيخ. ولما علم السيد الصدر بهذا التصرف كلف السيد محمود الخطيب ان يخابر السيد جواد شبر الخطيب الشهير ويطلب تأمين غرفة لسماحة الشيخ

محمد جواد مغنية. وكانت الفرحة الكبرى للسيد جواد أن يكون الشيخ في مدرسته الشهيرة والقديمة نسبيا.

وفعلا جاء إلى المدرسة وأمر خادمها تنظيف الغرفة الجنوبية الواسعة وذهب إلى بيته فأمن سجادتين عجميتين وفرشتين نظيفتين مع بطانيات ومخدات وجهزها كأحسن ما يكون وبعث خادم مدرسته ليحمل أغراض الشيخ وزف الشيخ الجليل إلى مدرسة السيد زفاف العروس وبذلك خسر السيد محمد رضا الحكيم بركات الشيخ جواد العلمية.

وكنا نمر عليه يمينا، فأصبحنا نمر شمالا من شارع الصادق بدل شارع زين العابدين ونحن على موعد يومي معه.

وصباح يوم جئته فرأيته في غاية التعب «والغضب» ولما سلمت عليه أجابني: لمن يكتبون هؤلاء (يقصد المراجع) ثم قال ست ساعات محمد جواد مغنية لا يحل عبارة معقدة. وكان يومها يكتب عن أن المنجس الثاني لا ينجس. فطلبت منه أن يقرأ لي ما كتبه فلما قرأ، قلت له: مولانا «انت عقدتها أكثر» ثم قلت: هل تسمحون ان اوضح شيئا من عندي، فرد الشيخ: انا أعلم ما تقوله ولكني لم استطع ان آتي بعبارة اقدمها للناس.

وأدركت تشوش فكره من التعب، والشيخ من عادته ان ينام مبكرا حوالي العاشرة ليلا وربما قبل ويقوم في الثانية بعد منتصف الليل فيشرب الشاي ثم يبدأ القراءة والكتابة وهكذا حتى العاشرة صباحا حوالي ثمان ساعات. وهو لا يتعشى ولا يأكل طعام الفطور الريوق او فك الريق او الترويقة عندنا لكنه كان يشرب الدخان من نوع «الكانت» الخفيف ويكثرمنه وهذا ما ساعد على تشوش ذهنه.

وقد قلت له يومها: يا مولانا، سهر، ودخان وجوع، ثلاثة اشياء دفعة واحدة، إنّ الواحدة منها مهلكة فكيف اذا اجتمعوا وأنا رأيي أن تترك الكتابة ونذهب سوياً إلى السيد الصدر ونحصل على بعض الفوائد ثم نخرج فنتغدى حسب العادة ثم تنام بعدها فإذا فعلت ذلك فسوف تقوم بعدها مرتاحا وبعدها لا تحتاج إلى وقت طويل انشاء الله.

ولم يكذب الشيخ مغنية خبرا فقام وتوضأ ولبس جبته وتوجهنا معا إلى بيت السيد ورحب به كثيرا على عادته.

وكان الشيخ أول من وجه إلى السيد سؤالاً حول حقوق الطبع وقد أجاب السيد بأن حقوق الطبع فكرة غريبة، القصد منها الاحتكار والسيطرة على الثقافة والكتاب، فردّ الشيخ على السيد إن هذه الفتوى غير ملائمة له، لأن مبنى السيد يسهل للآخرين طبع كتبه دون إذنه ودون ان يستفيد شيئا منها وهو الآن يعيش بسببها. فأجاب السيد على الشيخ بما يلي: افترض أنّ عالما حقّق مطلبا علميا، وعلى سبيل المثال مدة حياة الزهراء(ع) بعد النبي ،وقد ثبت لديه من خلال عرض كبير قدمه لطلابه، وقام الطلاب بتسجيل هذه الافكار على شريط او كتب أحدهم ما كان يقوله الاستاذ حرفيا ثم نشر الطالب هذا التقرير فهل يحق للاستاذ ان يمنع نشر هذا التقرير بحجة انه صاحب الفكرة وصاحب التحقيق. قال الشيخ مغنية: لا، فقال السيد: عندئذ ما الفرق بين الاول والثاني فسكت الشيخ. وفي نفس الجلسة قام بسؤال السيد احد الشباب الجامعي تتعلق بالذبح والفرق بين الذبح بالطريقة المذكورة بالرسائل العملية والشروط الصعبة التي يشترطونها مع الطرق الاخرى المتجاوزة لهذه الشروط. فأجاب السيد بما يلي ان الذباحة في الاسلام عبادة وشهادة.

أما كونها شهادة لأن الشهيد هو الذي يقدم نفسه من أجل من هو أفضل منه كأن يُقتل دفاعاً عن الدين والارض والوطن وما إلى ذلك فكل من قدم نفسه من اجل الافضل فهو شهيد في اللغة حتى لو لم يدخل الجنة. والخروف شهيد لأنه يقدم نفسه للإنسان لأن الانسان افضل كائن على وجه الارض. وأما كونها عبادة فلأنها توجه إلى القبلة والصلاة توجه إلى القبلة والذباحة يذكر فيها اسم الله والصلاة والعبادة كذلك فلا تكون العبادة بدون ذكر الله ولو اختلفت التفاصيل في عملية الذباحة فإنها لا تصح من غير المسلم والعبادة لا تصح من غير المسلم وهكذا . . . وفي نهاية الوقت خرج الشيخ مغنية وخرجنا معه وهو يقول الله أكبر ما هذا السيد الخروف شهيد؟!

ذهب الشيخ حسب عادته إلى مطعم قريب في طريقنا إلى الحرم العلوي ليتغدى لأن الجوع كان قد آذاه، وبعدها ذهبنا إلى الصلاة في الحرم ثم إلى البيت وتركنا الشيخ يرتاح من عناء ليل قاس. وعندما جئنا ليلا إلى الحرم لم نمر على الشيخ تخفيفا عنه ونعلم ان راحته لا تكون الا بالخلوة والتفكير.

وجئت اليه صباح اليوم التالي حوالي التاسعة والنصف فرأيته فرحا فاستقبلني بالابتسامة ثم قال لي فعلت كما قلت لي بعد الغداء والنوم قمت في الثالثة عصرا ولمدة ثلث ساعة فقط قمت بتسهيل عبارة المتنجس لا يتنجس، وكان قد ذكر امثلة عليها تسهل للقارئ فهمه للحكم الشرعي.

رحلتي إلى ايران في العام ١٩٧٦

في بداية الصيف يتفرق الطلبة وتعطل الحوزة لأن صيف النجف صعب، فالحرارة تصل في وسط النهار إلى اكثر من ستين درجة والبيت الذي لا يوجد فيه مبردة لا يمكن لأهله الحياة براحة وخصوصا في شهري تموز وآب حيث الحرارة ترتفع ويتحول النهار إلى لهيب كل ذلك . كما يقال . لنضج ثمار النخيل التي تحتاج إلى مصهر حتى تستوي ويدفع الناس ثمنا كبيرا في المناخ ليأكلوا الرطب اللذيذ والذي ينتظره العراقي بفارغ الصبر لأنه يعوضه كثيرا من السعرات الحرارية.

والنجف الأشرف تمتاز بأنها قطعة من الصحراء لا يوجد فيها مناخات رطبة الا بعد نصف الليل وبسبب ذلك ينام الناس ليلا على سطوح المنازل وهي نومة مريحة جدا ولذا ترى البيوت كلها لها سور فوقاني يعادل علوه حوالي مترين لصيانة العوائل حيث الحشمة والأدب والستر والصيانة والدين والحفاظ على العرض هو المقياس الأوفى والأكثر أهمية في ذلك البلد.

وبسبب هذ المناخات الجافة يسافر الطلاب العراقيون إلى الريف ويقومون بالدعوة والتبليغ لأهل تلك المناطق ويعودون بالخير عليهم وعلى المرجعية ايضا وأما اللبنانيون فغالبا ما يسافرون إلى لبنان الا أنه في ذلك الصيف والصيف الذي سبقه كان لبنان محترقاً

بالحرب الاهلية التي اشعلتها قوات الكتائب عندما قاموا بالاعتداء على باص في عين الرمانة وقتل أكثر من فيه وكان الباص لمنظمة التحرير الفلسطينية. ولما كان الوضع سيئاً لهذه الدرجة كان من الصعب علينا ان نذهب إلى لبنان خصوصا إلى بيروت التي تحولت إلى ميادين حرب طاحنة بين الجهة الشرقية والغربية. ولهذه الاسباب صرنا نفكّر جدياً للسفر إلى ايران.

وكان المرحوم الشيخ محمد جواد مغنية قد سافر إلى ايران بعد ان انهى تفكيك عبارة منهاج الصالحين . كما ذكرنا . وأهدى له سماحة السيد الصدر مبلغا جيدا من المال يكفيه لفترة زمنيةمع أنه غير محتاج لكنّ مثل الشيخ يجب ان يبقى . بحسب رأي الشهيد . في موقع الغنى والاحترام تعزيزاً للعلم وتكريماً له.

ولما كان الشيخ مغنية على علاقة طيبة بالمرجع الايراني الأول السيد شريعة مداري والذي يتبنى شاه ايران محمد رضا بهلوي مرجعيته. وهذه أول مرة في تاريخ قم تقوم فيها السلطة بتبنّي المرجعية في ايران وذلك لأن الشاه كان ينظر إلى النجف . وهي كذلك المصدر الروحي والمرجعية فيها.

وربما رأى الشاه ان المرجعية بعيدة عنه وتقع تحت تأثيره عدوه العراقي، لذلك فإنه لن يستفيد من مرجعية السيد الخوئي التي كانت قد أخذت دورها الكبير في العراق.

وفي المقابل فإنّ مرجعية السيد الخميني الثورية تلاحقه وتدعوه للتنازل عن العرش والرحيل عن البلاد وتتهمه بأسوء الاتهامات، وانه عميل المخابرات الامريكية والصهيونية وتجرده من صفات الحاكم الوطني. ولم يكن الشاه بعيدا عن هذه الصفة الملصقة بل كان فيها

مطموراً على شحمية اذنيه حيث فوض الامريكي يسرح ويمرح ويعتدي على الشعب الايران ولا يحق للقانون الايراني محاسبته في أي شيء يفعله كما انه ترك البلاد لكل فساد صهيوني.

المهم ان شريعة مداري كان المرجع الأول في ايران وكان الشيخ محمد جواد مغنية قد جاء في سنة ١٩٧٠ اليها وبقي اكثر من سنة في ضيافة هذا المرجع، ويومها كتبت له رسالة غير موقعة باسمي اسأله فيها عن الجو الايراني والدراسي، وبقي فترة لم يعرف من هو الشخص الذي كتب له هذه الرسالة. إلى أن جاء الشيخ عبد الامير شمس الدين (شقيق المرحوم الشيخ محمد مهدي) خارجاً من حي تل الزعتر بعيد سقوطه ونزل في بيت السيد علي الامين.

وذهبنا مع سماحة السيد محمود الهاشمي والشيخ محمد جواد مغنية لزيارته والاطمئنان عن الوضع وبالأثناء ولمناسبة الكلام ذكّرته بالرسالة فقال لي: عجيب! إلى الآن ما كنت اعرف من صاحب هذه الرسالة !

ولما وصل الشيخ مغنية قادما من النجف إلى قم رحب به المرجع الكبير وأنزله منزلا حسنا ووضع له من يخدمه في هذا البيت وأخيراً تزوج امرأة ايرانية مؤقتا وكانت تأتيه كل اسبوع مرة في النهار فيقضي منها وطره ثم تعود وكانت تريد ان تطيل الجلوس عنده فكان يرفض لأنه مشغول في كتابة الابحاث وهذا دأبه في بيته كما كان يقول حيث لا يمكنه ان ينام مع احد في غرفة واحدة .وبعد حوالي الشهرين من مكوثه في قام بتدريس مادة الاخلاق في مدارس شريعت مداري.

وبالعودة إلى مسيرتنا إلى ايران، فقد كنا يومها اربعة أشخاص:

أنا و الشيخ علي ياسين والشيخ طلال حمود والشيخ باقر الفقيه (الاخيران تركوا طلب العلم فيما بعد).

وكان من عادات المراجع في النجف اذا اراد أي طالب زيارة الامام الرضا(ع) فإنهم يقدمون له هدية مالية تعينه على الطريق، وفعلاً ذهبنا ـ نحن الاربعة ـ وقدمنا طلبا في (براني) السيد الخوئي فحصل كل واحد منا على خمسة عشر دينارا وكان هذا كافياً لأجرة الطريق. على ان مرتبنا ـ ما دامت العوائل موجودة في النجف ـ يبقى مستمرا.

وقبل ذلك بأيام جئت إلى بيت السيد الصدر وأخبرت سماحته بسفري لزيارة الامام الرضا(ع) فقال لي: يوجد رسالة وبعض الكتب أتمنى ان تأخذها معك، فقلت له: خادم وممنون. وكان السيد مستحياً مني فقدم ثلاثين ديناراً بينما لم يكن يقدم ـ حسب العادة ـ أكثر من خمسة دنانير لأن الاموال التي تأتيه كانت قليلة مقارنة بواردات المراجع المالية آنذاك، خصوصاً السيد الخوئي التي كانت تأتيه الاموال من كل حدب وصوب.

ولما جاء الوقت وهيأت الحقائب جئنا إلى (براني) السيد الصدر لنأخذ معنا الرسالة وبعض الكتب ففوجئنا بوجود ثلاث صناديق كتب كبيرة بينها صندوق طويل يحتاج إلى اثنين على الاقل لنقله إلى السيارة، وكانت الصناديق تحتوي على مقررات الشهيد في الفقه المسماة (بحوث في العروة الوثقى) مبعوثة إلى السيد كاظم الحسيني الحائري تلميذه الموجود في ايران، وقد استغربت ثقل هذه الحمولة، وانا وحيد وخادم السيد غير موجود وليس عندي ما يحمل الاغراض، ولا أدري ما اذا كان صاحب السيارة التي توصلنا إلى بغداد سيوافق على حمل مثل هذا الثقل. وبت وقتها حائراً، فالسيد غير موجود وكذلك السيد محمود الخطيب والشيخ النعماني، وماذا

اصنع والسيارة لا تستطيع الانتظار طويلا مما جعلني أتأسف وأترك الكتب مكانها وأخبرت السيد كاظم بما كان فأسف مثلي وقال تأتي عن طريق الشحن، وهكذا كان.

ذهبنا أولا إلى بغداد وأخذنا التأشيرة من السفارة الايرانية وكانت تغص بعد ساعتين وكانت والدة الشيخ طلال مع اولادها الباقين قد استأجرت مسكنا في بغداد فعرجنا مع الشيخ طلال حمود إلى المنزل حتى انتهى الوقت فأخذنا التأشيرة وتغدينا وصلينا وعزمنا على السفر وصدفة رافقنا الشيخ محمد علي برو من بلدة المعيصرة اللبنانية (قضاء كسروان) المتقن للغة الفارسية وهو طالب في قم المقدسة وقريب من السيد شريعة مداري ومن أكثر المراجع أيضاً.

سافرنا إلى خانقين ثم إلى خسروي ومنها إلى كرمنشاه حيث وصلنا قبل المغرب بساعة ولم يتيسر لنا الذهاب إلى قم فاقترح الشيخ برو علينا النوم في بعض المدارس العلمية وهي عادة متبعة للطلاب حيث ينامون مع رفاقهم.

وأجرى الشيخ برو اتصالاته بولي المدرسة فرحب كثيرا وفتحو لنا الابواب وهيؤا لنا البسط والفرش والماء والشاي وكان استقبالا يليق بعلماء لا بطلبة فقط، فشكر الله سعيهم.

ونحن جالسون على الفرش في باحة المدرسة وحيث الفيء والظل والشمس قريبة من الافول بدأت وفود الطلاب المؤمنين ترد إلى المدرسة وتسلم علينا ومن لياقة الايرانيين كانوا اذا سلموا على العالم يرجعون إلى الوراء ليبقى وجههم إلى العالم احتراما ثم يجلس في آخر البساط كما يجلس للصلاة تأدبا وقد قيل عنّا يومها اننا من كربلاء، فصار لنا احترام اكثر لما تلاقي كربلاء من تكريم وتعظيم في نفوس الايرانيين.

ومن باب الصدف جاء بعض الشباب المؤمن وكان يريد استخارة فقال الشيخ برو خذ له خيرة يا شيخ عفيف وكنت طبعا اكبر الطلبة فأخذت خيرة فكانت غير جيدة، ثم قال عندي حق شرعي وعندي ابن عم فقير لكنه غير متدين وانا متردد في دفع بعض الاموال اليه ولجأت إلى الخيرة فأراحني الله من ذلك.

بعد صلاة المغرب جاء خادم المدرس بطبق عليه بيض مقلي بالسمن وأربعة ارغفة فتعشينا وكان هذا هو عشاء الطلبة، وبعدها تسامرنا قليلا ثم توجهنا إلى النوم في الباحة الهادئة والندية.

صباحا بعد الصلاة مباشرة قدموا لنا الشاي والجبن وقطعة من الخبز ثم حزمنا الحقائب متوجهين إلى الكارج العام ومنه إلى قم.

بداية نزلنا عند بعض اخواننا اللبنانيين وكان كرمهم غامرا ،وكان المهم في زياراتنا بعد المعصوم السيدة فاطمة بنت الامام موسى بن جعفر وزيارة الاخ الكبير المجتهد السيد كاظم الحائري تلميذ السيد الشهيد واعطائه الرسالة والاعتذار عن عدم حمل الكتب للسبب الذي ذكرناه سابقا وكان نزولنا عند السيد كاظم نزول الغيث العميم حيث فرح فرحا شديدا واحفاني السؤال عن استاذه الكبير ثم ذكر ما يقوم به من عمل لتوسيع نطاق مرجعية الشهيد الصدر.

وكان السيد كاظم الذي هجر قبل سنتين من تاريخ زيارتنا قسرا مع الايرانيين . وحسب ادعاءات السلطة العراقية . لتطهير البلاد المقدسة من العنصر الفارسي والتركي والافغاني. فقد ثبّت وجوده العلمي في حوزة قم الغنية المحتاجة إلى اساتذة امثال السيد كاظم يحملون اجازة الاجتهاد من اكبر فقيه وكان للسيد مجموعة من الطلاب الكبار في العلوم توزعوا في ايران. من قم و اردبيل ومنهم

المرحوم السيد عبد الغني الاردبيلي الذي اسس حوزة علمية وكان قد ترك الدراسة ليقوم بدوره التوعوي في تلك البلاد النائية وكان شديد الحب لسماحة الاستاذ وكان السيد الصدر يوده كثيرا وأثبت حبه وعاطفته الجياشة في مقدمة الحلقة الاولى من الاصول التي كتبها على امل ان يدشن السيد عبد الغني حوزته بتدريس الحلقات وكان التلميذ النشط يلح على استاذه بالطبع لإغناء الطلاب الجدد بأفكار استاذه الكبير.

وغني عن التعريف بأن السيد الصدر كثير الحب لطلابه ومحبيه وكان للسيد عبد الغني موقع خاص لأنه من بين خواص الطلبة المجدين واصحاب الهمم العالية والدعاة الأوائل لمرجعية السيد الصدر ولكن الاستاذ فجع بتلميذه البار الذي توفي بحادث سير مؤسف وتبخرت الآمال المعلقة على هذا الركن الكبير في بلاد اردبيل ولتأثر السيد بولده النبيل خصه في مقدمة كتابه الاصولي (الحلقة الاولى) بإهداء خاص يبقى ما بقي الكتاب تعبيراً عن الحب والعاطفة الجياشة وتقديراً لدوره المعطاء.

يقول السيد الاستاذ في بداية المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

يا الهي وربي يا عليما بضري وفاقتي يا موضع املي ومنتهى رغبتي، بعينك أي رب وتقربا اليك بذلت هذا الجهد المتواضع في كتابة الحلقات الثلاث لتكون عينا للسائرين في طريق دراسة شريعتك والمتفقهين في دينك فإن وسعته برحمتك وقبولك وأنت الذي وسعت رحمتك كل شيء فإني اتوسل اليك يا خير من دعاه داع وأفضل من رجاه راج ان توصل ثواب ذلك هدية مني إلى ولدي البار وابني

العزيز السيد عبد الغني الاردبيلي الذي فجعت به وانا على وشك الانتهاء من كتابة هذه الحلقات فلقد كان له قدس الله روحه الدور البليغ في حثي على كتابتها واخراجها في أسرع وقت وكانت نفسه الكبيرة وشبابه الطاهر الذي لم يعرف مللاً ولا كللا في خدمة الله والحق ـ الطاقة ـ التي امدتني وانا في شبه شيخوخة متهدمة الجوانب على ان انجز جل هذه الحلقات في شهرين من الزمن وكان يحثني باستمرار على الاسراع لكي يدشن تدريسها في حوزته الفتية التي انشأها بنفسه وغذاها من روحه من مواطن آبائه الكرام وخطط لكي تكون حوزة نموذجية في دراستها وكل جوانبها الخلقية والروحية.

ولكنك يا رب دعوته فجأة اليك فاستجاب طائعا ووالله ما عرفته خلال العشرين عاما التي تتلمذ فيها علي وتترعرع إلى جنبي الا سريعا إلى اجابتك نشطا في طاعتك لا يتردد ولا يلين ولا يتوقف ولا يتلكأ ووالله ما رأيته طيلة هذه المدة غضب لنفسه وما أكثر ما رأيته يغضب لك وينسى ذاته من أجلك.

أي رب اذا كنت قد عجزت عن مكافأة هذا الولد البار الذي كان بالنسبة لي وبالنسبة لأبيه معا مثالا فريدا للولد المخلص الذي لا يتردد في الطاعة والتضحية والفداء.

واذا كنت قد فجعت به وانا في قمة الاعتزاز به وبما تجسدت فيه من عناصر النبل والشهامة والوفاء والايثار وما تكاملت فيه من خصال التقوى والفضل والايمان واذا كان القدر الذي لا راد له قد أطفأ في لحظة املي في ان امتد بعد وفاتي وأعيش في قلوب بارة كقلبه وفي حياة نابضة بالخير كحياته فإني اتوسل اليك يا رب بعد حمدك في كل يسر وعسر ان تتلقاه بعظيم لطفك وتحشره مع الصديقين من عبادك الصالحين وحسن اولئك رفيقا وأن لا تحرمه من

قربي ولا تحرمني من رؤيته بعد وفاته بعد ان حرمت من ذلك في حياته وارجو ان لا يكون انتظاري طويلا للاجتماع به في مستقر رحمتك وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين[1]. (انتهت)

رحلتنا استمرت حوالي اثنين وعشرين يوما وكان لنا لقاءات مع المراجع التالية: السيد شريعة مداري، السيد الكلبيكاني، السيد المرعشي النجفي، وكثير من الشخصيات العلمية والتقينا عددا من الطلاب الرفقاء كما التقينا عددا من الزوار اللبنانيين وكانت رحلة ممتعة في جوار الامام الرضا(ع) حيث بقينا حوالي اسبوع وتركنا الشيخ مغنية بضيافة شريعة مداري وقفلنا راجعين إلى قم واستضافنا سماحة السيد كاظم الحائري نحن ومن معنا وكثير من الطلاب اللبنانيين ايضا ثم حملنا اشرطة كان قد سجلها من دروس السيد بالمسجلة الكبيرة والتي يسع شريطه لأكثر من عشرة محاضرات ومرت معنا على الحدود العراقية ولم يسألنا أحد عن اغراضنا مطلقا لكوننا عربا وكان المهم لدى وصولنا بل الأهم ان نذهب إلى سماحة السيد الصدر للسلام عليه ووضعه في اجواء الرحلة.

ولا بد من الاشارة هنا بأن رحلة ايران كانت غنية بالفوائد والمناقشات العلمية اختصرتها حتى لا يكون الكتاب هذا عن رحلتي الخاصة و لو كان كذلك لأفضت فيه واظهرت كثيرا من اللطائف والبركات وهذه لها وقت آخر، والمهم اننا ذهبنا لزيارة الاستاذ الكبير ففرح جدا لمقدمنا وسلمناه اشرطة المحاضرات الاصولية فنادى بصوته الهادي الرصين الشيخ محمد رضا النعماني واستلمها بعدما دعا لنا ودعونا له.

(١) بداية الحلقة الأولى ص٣/ الناشر مجمع السيد الصدر قم المقدسة

مدينة الشطرة

الشطرة مدينة في محافظة الناصرية جنوب العراق تتسع مع القرى المحيطة فيها لحوالي ماءة وخمسين الف نسمة وقد غلب على المدينة الثقافة الماركسية لضعف الجانب التوجيهي في المدينة وقلة علماء الدين فالمدينة مع محيطها ليس فيها عالم واحد اللهم الا في شهر رمضان ويوجد فيها جامع كبير وأكثر من جامع صغير.

وكان الشيخ محمد الكرباسي قد أتى إلى هذه المدينة منذ ثلاثين سنة تقريبا أي منذ بداية عالميته حتى صار مجتهدا مرشحا للمرجعية.

وكان يأتي في شهر رمضان وعاشوراء وربما يبقى في الصيف لكونها أكثر راحة من صيف النجف ومن هنا فسح المجال للتيارات الفكرية وخصوصا الفكر الماركسي ان يمشي بدون عوائق.

ولما ظهرت مرجعية السيد الصدر وهو المنازل العنيد للشيوعية والماركسية كان لكتاب فلسفتنا صدى واسع في العراق وفي العالم وكان كثير من شباب الشطرة المثقفين يقلدون سماحته.

وبما اني كنت قد اصبحت مثقفا يعرفني السيد والسيد محمود الهاشمي ايضا، الذي كنت تحدثت معه مرةً بشأن قدرتي وامكاناتي للتحرك في خدمة السيد، وكنت قد لخصت فلسفتنا وأخذت التلخيص لسماحته وبينت له كيفية الفكرة وعرف بأنني احفظ النص

بأكمله مع كثرة اسئلتي الفكرية وكتابة الافادات اليومية في بيت السيد والتي اخبرت الشيخ مغنية عنها حيث رآها معي فقال ما هذا قلت هذه افادات بين السيد كما سميتها بشكلها العفوي فأصبحت جاهزا وحاضرا في ذهن السيد امام اي طلب.

وصادف ان جاءه مقلدوه من الشطرة يطلبون منه عالما لشهر رمضان لأن الشيخ الكرباسي قبل سنتين جاء في العشر الأواخر فقط فبقي خمسة ايام وعاد إلى النجف والسنة الماضية لم يأت والظاهر انه عزف عن المجيء لأنه اصبح له مقام. كما يقال. اسمى من عالم مدينة بل اصبح بإمكانه ان يتصدى للمرجعية والمركز الأعظم.

لهذا رحب السيد بالفكرة لأن المكان خالي والجو مؤاتي ولو كان الشيخ الكرباسي باقيا على سيرته لكان من الصعب طرح اسم آخر.

وعلى كل حال فلما طرحوا عليه ارسال عالم إلى المدينة فكر قليلا ثم قال لهم هذه المدينة بالشكل الذي تذكرون عنها لا يصلح لها بنظري الا عالم لبناني اسمه الشيخ عفيف النابلسي والرأي ان تذهبوا لبيت السيد الخوئي وتطلبوا الشيخ من قبل السيد بحجة انكم سمعتم عنه وعن صفاته ولا تخبروا شيئا عني حتى لا يتعقد الوضع وفعلا ذهب الوفد إلى ديوان السيد الخوئي وعرض له حاجة عالم ثم ذكر اسمي ولما كنت قد صرت ملازما لديوان السيد الصدر كان ذهابي لديوان السيد الخوئي قليلا وكانت حاشية السيد لا تعرفني حق المعرفة فمن هنا تم اقتراح الاستفادة من الشيخ حسن طراد لأنه اكبر ومعروف، وعالم محترم، وقديم في النجف فاتصلوا به فجاء وعندما سألوه عني افاض بأدبه وذوقه عن كفاءتي العلمية والأدبية واني شاعر وخطيب ايضا ففرح السيد بذلك، ثم كلف الشيخ حسن المتابعة

وفعلا جاء الشيخ حسن وطلب مني ان اذهب لديوان السيد الخوئي فذهبت وسلمت على السيد الخوئي ثم جلست مع الوفد وحدي فأخبروني بأن السيد الصدر ذكرك وكلفني ان آخذك بهذه الطريقة لأن السيد الصدر لم يكن بعد يبعث وكيلا منفردا بل كان الوكيل يذهب باسم السيد الخوئي ثم يعطيه السيد الصدر وكالة لتتم العلاقة مع مقلديه فتوافقنا على زمن الذهاب، وذهب الوفد مسرورا بأنه قد حقق امنيته بعالم يكون فاتحة خير للمدينة والضواحي.

الا انه في صبيحة الجمعة أي بعد الاتفاق بخمسة ايام حصلت معاكستان:

الاولى ان بعض حواشي السيد الخوئي طرح اسم السيد علي الامين وهو لبناني وسيد ايضاً، والسيد له احترام بالعراق اكثر من غيره.

ولما عرف السيد الصدر بأن السيد علي الأمين قد طرح اسمه في مقابل اسمي قام بسحب اسمي من التداول وقال: «ليس مناسبا المنافسة مع السيد».

توقفت وفي نفسي شيء من هذا إلا أن احترامي وتقديري للسادة جعلني أنأى عن هذه المشاحنات والعصبيات.

ولكن هذه المعاكسة حُلَّت لأن السيد علي الامين لم يبد موافقته وظل مترددا مما جعل السيد الخوئي يحسم أمره بارسالي إلى المدينة المذكورة.

المعاكسة الثانية وقبل يوم من الموعد المحدد ذهبت صباحا لديوان السيد الخوئي وبقيت معه حتى وقت الصلاة وأخذت مجموعة من الرسائل العملية فأخبرني وانا إلى جانبه في الزقاق الطويل ونحن

متوجهون إلى مسجد الخضرة لصلاة الجماعة خلف السيد قال: أمس بعث الشيخ الكرباسي شخصا من قبله وقال يا سيدنا كيف تبعث عالما إلى الشطرة وانا صار لي اكثر من ثلاثين سنة اذهب في شهر رمضان وغيره فأنا عالم المدينة وسوف اذهب بعد ايام قليلة اليها. وهنا قال السيد لو ذهبت انت يمكن ان تذهب إلى المسجد الآخر ولا يهم ونترك له المسجد الكبير.

قلت سيدنا الشطرة سميت كذلك لأن جداول نهر الفرات شطرتها شطرين ونحن نخاف ان نشطرها شطرين آخرين فتصير اربعة وبنظري لا يليق لمن يذهب وكيلا عن المرجعية العظمى أن يكون في المسجد الصغير بل يجب ان يكون المسجد الكبير والرأي أن نؤخر الذهاب حتى ينتهي شهر رمضان ويأتي هو ثم نذهب نحن.

وفي اليوم الموعود كانت الشطرة بكل شبابها وشيبها واطفالها ونسائها على موعد مع الحدث الجديد ولما توجهت السيارة التي ستنقل العالم كانوا ينظرون اليها نظرة احترام كبير لأنها ستكون مركوبا لعالمهم الجديد(الذي من المفترض ان يكون مبعوثاً من قبل الصدر) الذي سمعوا عنه الخبر الكثير .وقد كان بعض الاكارم من الاغنياء قد صنع وليمة تتناسب مع العلماء والحشد الذي سيتناول طعام الغداء معه.

ولما قدم الوفد الآتي من مدينة الشطرة رحبنا بهم وأخبرناهم بقول السيد الخوئي فحزنوا كثيرا وقالوا نحن نريد عالمنا ولا نقبل غيره وسوف نفرض هذا فرضاً على السيد.

وذهبنا لبيت الشيخ حسن الذي فوجئ بالعرقلة الجديدة حيث كان قد نظم قصيدة وداعية ونظمت له جوابا أيضا وكان متشجعا أن

يذهب معي إلى الشطرة وهناك يلقي قصيدة او خطبة رنانة ويثني فيها على الشيخ عفيف لما بيني وبينه من حب واحترام ومعرفة علمية.

ورغم اصرار الوفد على ذهابي إلى المدينة ولو لتناول طعام الغداء وادخال السرور على اهل المدينة في هذه الليلة فإن السيد الخوئي لم يوافق على ذلك وفضّل التريث قليلاً لجلاء الفكرة.

وعاد الوفد في حالة من الحزن والألم لا توصف واستمرت علاقتي بهم حتى بعد أن ذهبت إلى بغداد وكانوا يأتون الي ويقدمون لي الهدايا. وبعد هذه القضية التي حصلت عدنا إلى السيد الصدر لنخبره بالأجواء الجديدة فقال جملة واحدة: «لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً».

قضاء خانقين

ولما كنت قد صرت معروفا في ديوان السيد الخوئي وفشلت رحلتي الاولى فصار كل ما جاء وفد يعرض علينا.

ومم عرض علينا مدينة كردية اسمها «طوزخرماتو» يفهم أهلها اللغة العربية وبعثوا خلفي فلم اتوافق معهم وكانوا مسرعين حتى استشير السيد فسنحت لي الفرصة وذهبت إلى السيد الصدر وأخبرته بما حدث، فقال هذا خلاف التوازن أنت عالم عربي وأديب وشاعر فكيف تذهب إلى مدينة كردية ،هل نبعث إلى الشطرة طالبا كرديا.

ورأيي ان تترك هذا الأمر فتركنا، ولم يتيسر لنا في تلك السنة أي سبيل عن طريق السيد الخوئي.

وكيل الشهيد الصدر في بغداد

مدينة الحرية او مدينة الهادي كما كان اسمها اولاً هي عبارة عن منبطح واسع في جنوب مدينة الكاظمية ومقسمة إلى ثلاثة أحياء وقد سميت الاحياء الثلاثة فيما بعد: الحرية الأولى[1] والثانية والثالثة.

الأولى تعرف باسم البستان لأن المكان كان فيه بستان والى جانبها حي يقال له دباش وهذه الارض كلها كانت للرجل التاريخي رئيس مجلس الأعيان في العراق الحاج عبد الهادي شلبي وكان له دور في زمن الملكية. ولدى مجيء عبد الكريم قاسم ومجيء (المد الأحمر) لوحق جماعة الحكم فخرجوا هاربين في البلاد العربية والأوروبية وكان منهم الحاج عبد الهادي وعائلته الكبيرة والذي قال لي وأنا في معرض السؤال عن تاريخه: «الحمد لله ما انذلينا بخروجنا من العراق».

قسّم الشلبي الأراضي الزراعية إلى قطع صغيرة وباعها بالتقسيط فأصبحت الاحياء الثلاثة تستوعب أكثر من ثلاثماية ألف عراقي وعمرت الأراضي كلها وبني من ميراثه الخاص حسينية أُطلق عليها (حسينية الهادي) وبنى معها محلات تجارية تؤجّر لصالح الوقف

---

(١) كان يبلغ عدد سكان الحرية آنذاك حوالي ثلاثمائة نسمة.

بالاضافة إلى منزل لعالم المدينة وهو مؤلف من طابقين الأول من خمسة غرف بين فسحتين للمدخل حوالي سبعين مترا وفسحة داخلية للعائلة حوالي خمسين مترا والطابق الفوقي غرفتان أحداهما طويلة والثانية مربعة ويوجد سطحان كنا ننام في الصيف على السطح الأول.

أول عالم جاء إلى هذه المدينة من السادة الاكارم وهو السيد محمد كاظم الأعرجي وكان ذلك في بداية الخمسينات وله دوره في الفقاهة والتأليف ولم يطل عمره هناك فقدم الشيخ نجم الدين العسكري الطهراني نزيل سامراء والذي درس في سامراء وتخرج منها وجاء منها إلى بغداد وكان الشيخ العسكري من المؤلفين وكان له مكتبة كبيرة جدا وكان عنده مجموعة من المخطوطات النفيسة في مكتبته.

عندما مات المرحوم العسكري التزم ابنه الشيخ محمد وهو آخر الأولاد لأن الباقي من أولاده خرجوا منها وبدأو يزاولون اعمالهم الخاصة. وأخيرا ترك الشيخ محمد حسين الحسينية وسافر إلى الامارات العربية.

بعد ذلك قام أهالي الحرية الأولى وارباب الوقف أو قل وكلاء الوقف بالاتصال بالسيد حسين الصدر وطلبوا منه وكيلا من السيد الشهيد الصدر، ولما حدث ذلك أرسل السيد الصدر خلفي ذات ليلة وأخبرني بهذا الموقع الجديد وبتاريخه وطلب مني القبول بإمامة المؤمنين هناك وكيلاً عنه فأجبته جوابا مختصرا: «أنا جندي التزم أوامر القيادة فأي مكان ترونه مناسبا اقبل وانفذ فورا ولا رأي الا رأيكم» ففرح رحمه الله بهذا الالتزام، ودعا لي، ثم حدد موعد اللقاء في مناسبة يوم الغدير ليكون ذلك منسجما مع الفرح والابتهاج

وفعلا جاء وفد كبير مؤلف من خمس وعشرين شخصية من وجهاء الحرية وفيهم وكلاء الوقف السيد ابو هاشم، والحاج كاظم ابو الطحين والحاج ابو كاظم، ومعهم بعض طلاب الحوزة في النجف اذكر منهم طالباً اسمه الشيخ سامي.

وفعلا كانت فرحة كبيرة حيث تم اللقاء في بيت السيد والقى الشيخ حسن طراد قصيدة مطلعها.

غاب العفيف عن النجف　　فبدا يخامرها الاسف

وتوجهنا بعد تقبيل يد السيد الصدر إلى الحرية قرب الامامين الكاظميْن عليهما السلام وكنت الوكيل الأول الذي يذهب بإسم السيد دون وكالة أخرى لأنه. كما ذكرت سابقاً ـ كان الذي يرسل الوكلاء هو السيد الخوئي، أما الآن فقد تغيرت المسؤولية وتغيرت الاستراتيجية عند السيد فلم يعد بحاجة إلى وكالة السيد الخوئي لأن مرجعية السيد أصبحت قوية ومتصاعدة بالطبع لدى وصولنا نوينا الإقامة عشرة ايام لتصحيح صلاتنا وبقينا مع الاخوة في الأوقات الثلاثة جماعة صبحا والظهرين والعشائين كنا مع كل صلاة جماعة ندرس درسا ومرت الجمعة فخطبنا خطبة الجمعة ودعونا إلى الوحدة بين المسلمين.

وعدنا بعد عشرة أيام ونحن نرتاح إلى نتائج وجودنا ولما جئنا إلى ديوان السيد الذي كان يتتبع تحركاتنا كلما جاءه شخص من هناك يسأله فيخبره جيدا عن الشيخ فأصبح السيد مشتاقا ليرى الشيخ ويسأله حتى يتحقق من صحة الأخبار السارة.

ولما شرحت له النتائج وذكرت اليوميات والوقائع أبدى كثيراً من السرور واعتبر ذلك فتحا مهماً في بداية طريق المرجعية وهي بشارة تبشر بمستقبل باهر للمرجعية الجديدة.

ولكنني قلت لسماحته رغم انني حققت هذه الفتوحات وانشاء الله يزداد هذا الخير لكنني اقترح ابقاء الشيخ عفيف في الحوزة وتعيين بديل من الشباب الواعد ممن يحسن الخطابة ولو كان لا يزال في أبحاث اللمعة والكفاية ويدخر الشيخ عفيف لمكان اكبر من هذا المكان فأجاب رحمه الله . وكأنه احس ان ميلي لا يزال إلى اهل الشطرة . بجواب مشعب إلى ثلاث نقاط :

اولا ان بغداد مركز كبير مملوء بالوكلاء ولهم شأنهم وقال هذه الجهة الجديدة لا يناسبها ان ترسل وكيلا ضعيفا امام ماءة وكيل اقوياء بل لا بد من ارسال اول وكيل يكون قويا وتأخذ الجهة بالتوسع عن طريقه.

الثاني ان المركز المرموق والأكبر عليه أعين كثيرة وذكر امثلة (جامع المصلوب) الذي يصلي فيه وجهاء بغداد و(جامع الخلاني) الذي يصلي فيه تجار بغداد وعليهما تتنافس الوجاهات والشخصيات ولا يمكننا الحصول عليه مباشرة ولا يمكنك انت ان تصل إلى مثل هذا دفعة واحدة بل لا بد ان تتدرب في مكان عادي ثم تترقى حتى اذا شغر مكان مناسب تكون انت جاهزا لملء ذلك الفراغ.

ثالثا : إن بغداد هي العراق فالشطرة مهما كبرت حجمها لا يزيد على حجم حي صغير في بغداد وليس للشطرة امتداد إلى أي قرية أخرى غير محيطها بينما بغداد تمتد إلى الجنوب والشمال والشرق والغرب والوسط. وبغداد هي العاصمة والناس يحتاجونها وهي لا تحتاجهم فوجودك في الشطرة يحصرك ووجودك في بغداد يظهرك.

وبعد العرض الجميل والتحليل الاجتماعي السياسي أذعنَّا له وقلنا :

الأمر لك ولكن هي وجهة نظر، فقال مع ذلك سيكون للشيخ عفيف انشاء الله بعد سنة او اكثر المركز الاسمى عندما تسنح لنا الفرص.

فودعنا شاكرين وعدنا إلى عملنا وعلى الفور بدأنا بالتخطيط لتوسيع العمل لأنه نفث في روعنا قوة وحيوية جدية فارتفعت درجة الحرارة من واحد إلى عشرة فوراً.

وكان أول عمل فكرنا فيه فتح جناح خاص للنساء واخترنا الجانب الشرقي وعرضنا الفكرة على وكلاء الوقف فرحبوا معجبين بالافكار الجديدة ووصل الخبر إلى بنت الهدى السيدة آمنة الصدر رحمها الله فاخبرت أخاها المرجع بذلك وتحدثت مع زوجتي بالهاتف لتتطلب مني أن أؤخر الدرس للأخوات وفتح الجناح الشرقي من المسجد، ولا أستعجل التطور وبينما كنا على موعد مع الدرس وحضور الاخوات اعتذرنا منهن فذهبنَ خاسرات وكن آملات الاستفادة من هذا الدرس الجديد.

ولما ذهبت إلى الشهيد الصدر بعد اسبوعين من تاريخ المنع ذهبت مستنكرا توقيفي ومنعي درس الأخوات وقلت في جامع البنية يذهبن بناتنا عند الشيخ المصري ويدرسهن التاريخ الاسلامي ويشنع علينا، أفلا تدرس بناتنا وتتعلمنَ التاريخ الصحيح والحكم الشرعي الهادف فقال: «على مهل شيخ عفيف لا تستعجل إن القوم عندهم جنون في حب الحكم وأي وشاية ولو كانت خفيفة تؤدي إلى اخراجك» قلت: هذا خوف غير مبرر، فقال رحمه الله: بلى مبرر لأن الحكم الجائر كانت له سابقة مع الشيخ عارف واخوانه فما هي جريمة الشيخ عارف واخوانه لولا هذا الجنون فالخوف مبرر والرأي ان تخفف حتى لا يشعروا انك جئت لتقيم حكم الاسلام ولا تلفت الانظار الا ما اصبح امرا واقعا.

فقبلنا النصيحة وسكتنا ولكننا بعد فترة فتحنا جناحا لصلاة الاخوات وتبرع بعض الاخيار بالستائر الفاصلة من البوابة حتى آخر الحد المطلوب وتحمست الاخوات للمجيء وحرك هذا العمل بقية المساجد ان تقيم جناحا خاص بالمسجد.

علاقتنا العامة مع المحيط

توطدت علاقتنا العامة من الحرية إلى الكاظمية حتى الشعلة وبدأت عملية التواصل إلى احياء بغداد حتى المدائن التي سموها بغداد الجديدة.

وكان مقلدو السيد الصدر يرجعون الينا في كل مكان ويسألون عن الاحكام الشرعية وطبيعة العراقيين أنهم يسألون بكثرة !

واخترقنا الجامعة العراقية وبدأت وفود الطلاب تترى على وكيل السيد الصدر وكانوا يجدون حاجاتهم مقضية.

ولم يكن للسيد وكلاء كثر في بغداد . كما قلنا . مختصين به وأنا الوكيل الأول المجرد من المرجعيات الاخرى رغم اني احمل وكالة من السيد الخوئي واسعة في قضية مدينة الشطرة.

وبدأنا نتكاثر وبدأ وكلاء السيد يتنامون ويكثرون ويبارك الله فيهم وكنت احضر المناسبات الخاصة بالناس خصوصا وان موقع الحسينية كان هاماً باعتبار ان الفواتح كانت تقام فيه وكنت اشارك في هذا المكان وغيره.

وكان كل من يحضر صلاة الجماعة ويسمع الدرس ينقل الخبر إلى رفقائه فحصل لهذا المسجد اعلام قوي دون ان ندفع أي قرش للاعلام وتواصلنا مع بقية ائمة الجماعة في مساجد الحرية التسعة

كما اذكر وزارونا وزرناهم ورحبوا بوكيل السيد وكان الشيخ السوداني اكثر انفتاحا وتعاونا من غيره وأبدى اهتماما حتى مساعدتي بوضعي الخاص، مع ان السيد الشهيد كان يعطي مبلغا معقولا حتى لا يتحمل الآخرون مسؤولية نفقات العالم.

وكان لإخواننا الأكارم علاقات طيبة معنا وبادلناهم الحب والاحترام ومنهم السيد حسين الصدر. ابن المرحوم السيد اسماعيل الصدر أخو السيد باقر. امام الجماعة في المسجد الهاشمي ومنهم السيد حسين هادي الصدر الذي يصلي في جامع التميمي في الكرادة الشرقية.

كما رسمنا علاقات منفتحة مع كثير من الشعراء والعلماء والتجار المؤمنين وإن كانت قليلة الا انها بدأت تتطور شيئاً فشيئاً.

وأول من جاءني المرحوم الشيخ جعفر الصائغ المعروف بعلاقاته مع بيت (الخالصي)[1] وقال: ان الشيخ مهدي الخالصي يود زيارتكم فرحبت بكل تقدير وشكرته سلفاً. وفعلا حدد الموعد وجاء الشيخ مهدي حسب عادته ومعه ثلاث سيارات وحوالي تسعة من الشباب والشيوخ ولهم مسؤوليات في جماعته وتذاكرنا معهم كثيرا وتحدثنا عن مسؤوليات المرحلة الثقافية.

لم يكن في وسع علماء بغداد او العراق بشكل عام ان يتحدثوا

---

(١) آل الخالصي الذي ينتسبون إلى المرجع الكبير محمد مهدي الخالصي لم يكونوا على علاقة طيبة مع المراجع الا ان الشهيد الصدر استطاع ان يستوعبهم ويقربهم منه، وأذكر انه ـ رحمه الله ـ قدّم لعشرة طلابِ علمٍ من آل الخالصي عباءات بهارية وذلك عن طريق السيد حسين الصدر، وكانوا هم بدورهم يزورون السيد وكان يمثلهم بشكل دائم الشيخ جواد الخالصي.

بالسياسة وأقصاها كنا نتكلم على اسرائيل وأمريكا ونثني على موقف العراق في مراحل الجهاد ضد الصهاينة لأن العراق اول المزايدين في الحروب الاعلامية وخصوصا جهابذة حزب البعث او (التكريتيون).

وفي بداية أيامي ذكرت خطابا شبه ثوري وقلت فيه ان الحاكم الاسلامي اذا اعوج وجب على المسلمين ان يقوموه بحد سيوفهم.

فقال بعضهم ان هذا الشيخ جريء جدا وجرأته سوف تخسره وتخسرنا وكانوا يعرفون عواقب هذه المواقف. وفي الجلسة الصباحية التي كانت مع الكهول والكبار الشبه يومية تقدم إليّ بعضهم ونصحني وقال: شيخنا الوضع صعب في العراق وأنا احكي عن خبرة، مثل هذا الكلام الذي قلتموه في الخطبة الاخيرة غير مقبول ولا يتحملون النظام هنا، فنحن نطلب من سماحتكم تخفيف اللهجة. فأجبته: اولا اشكركم، وثانيا: إن اقصى ما يمكنهم فعله أن يقولوا لي: انتهت الاقامة. فردّ عليّ: هذا ما نخافه ان نحرم من علمك، ونحن مسرورون في وجودك، فإذا سفروك هيهات ان نحصل على عالم مثلك.

رحلتي إلى الكويت ولبنان

كان لي غرض في رحلة الكويت سافرت بواسطة بعض الاخوة ولم اخبر السيد الا بعد الرجوع وقضاء الحاجة وعندما رجعت ذهبت إلى النجف وقبلت يده وأخبرته بالنتائج الكبيرة التي تحققت ففرح كثيرا.

وكان من الصعب على غيري ان ينجز هذه المهمة التي تعود على المرجعية بالخير العميم.

وبعدها بحوالي شهر ذهبت إلى لبنان ورأيت الأهل وكان معي بعض الأولاد فبقيت حوالي شهر وكان ذلك قريبا من موسم الحج وعندما رجعت إلى النجف أخذت معي مبلغاً لا بأس به وقدمته لسماحته ا لسيد. بعدها أعطاني اجازة اشمل مما كانت في السابق.

واتصلت في لبنان باساتذي ورفقائي فرحبوا كثيرا وسألني المرحوم السيد هاشم معروف عن عملي الخاص، وكان قد علم اني اصبحت وكيلا للسيد في بغداد، فأعرب عن عدم رضاه بالخروج من النجف. وقال لي: جبل عامل فيما مضى ،وحتى اليوم لم يخل من خمسة على الأقل من المجتهدين. اما الآن فإني أرى ان سوق العلم قد تراجع فاذا انت وامثالك من هذا الجيل الواعد انصرفتم مبكرا عن الدرس في الحوزة وعشتم كوكلاء مشغوليين بشؤون الناس سنصل حتما إلى زمن لا يوجد فيه عالم مجتهد في هذا الجيل وهذه

بنظري كارثة كبيرة. فأجبته: سبق السيف العذل، هذه التفاتة قيمة، وعلى كل حال فإنني لم أنقطع عن الابحاث والتدريس والمراجعة.

كما التقيت باستاذي السيد موسى الصدر وقد طلبت منه يومها منحة دراسية لولدي محمد في الخارج وكان المرحوم قادرا على ذلك، وعلى علاقة طيبة مع الدول، فيستدر عطفها بالمنح للطلاب الفقراء.

وعندما عدت إلى مدينة الحرية لم أعلم أحداً بذلك، وفوجئت . وهذا شيء جميل . ان صلاة الظهر كانت على خلاف المعتاد من حيث الحضور وهي عادة ما يكون العدد فيها قليلاً، وأما صلاة المغرب والعشاء فكانت كالمظاهرة فقلت للمرحوم السيد هاشم كيف عرف الناس بذلك، مع اني جئت سرا في الليل ولم يعرف أحد. الا انني عندما خابرت البعض وسألته عن ذلك، قال كنا نسترق السمع ونترقب بفارغ الصبر ونعد الثواني لكي تأتي الينا.

وكنت قد حملت معي من لبنان ايضا الفتاوى الواضحة بطبعتها الجديدة وحلتها القشيبة وسلمت النسخ إلى السيد محمود الخطيب مع نسخة من اقتصادنا بالطبعة المزيد عليها والمنقحة ايضا ففرح السيد كثيرا ودعا لي بالخير.

في هذه الأيام بدأت أخصص كتاباتي لدروس حول المرأة ودروس في التفسير وكان درسي الفقهي لا ينقطع وكان عندي قبل الظهر دروس صباحية وجلسة قبيل الصلاة بنصف ساعة مع الحجاج الكبار افهمهم في الدين وكان عندي بعد الظهر دروس في اقتصادنا للاخوات ودروس في فلسفتنا للشباب كما كان عندي بعض الطلاب يدرسون الدراسات الحوزوية . ومنهم ابن الشيخ جعفر الصائغ .

المنطق والالفية واصول المظفر والرسالة العملية وكنت اؤدي كل ذلك ببراعة حيث وقتي يبقى مشغولا من صلاة الفجر إلى صلاة الظهر ومن العصر إلى صلاة المغرب.

وكان من عادتي انني اجيب على كل الاسئلة مهما طال وكنت أجلس بعد كل صلاة جماعة فأرد على الاسئلة وهي كثيرة جدا فكنت أبقى ساعة أو أكثر يوميا بعد كل صلاة وبالطبع كانت الجلسة بعد صلاة المغرب أطول. وكانت تأتيني بعض الاسئلة السياسية فأحولها عن مسارها أو أصرفها بادعاء انني لا اتعاطى الشؤون السياسية.

وفي اثناء اقامتي في الحرية ومع اتساع علاقاتي زادت معرفتي بالقوى المسلحة العراقية عن طريق ضباط ونواب ضباط اذكر منهم حسين موسى الذي كان يشغل منصب نائب لأحد الضباط والدكتور جواد وهو برتبة رائد كان يعمل في مستشفى الرشيد.

وكانوا هؤلاء مغرمين بالسيد الصدر وكانوا يبوحون لي بأشياء واشياء وانهم قادرون على اعمال تخريبية عظيمة اذا طلب منهم وبينما الدنيا تتمخض تربصنا اياما ننتظر، واذا زلزال يهز الشرق وخصوصا الشرق الأوسط الذي وصل صداه إلى العالم بثورة يقودها عبد صالح اسمه روح الله الموسوي الخميني.

فيما قبل الثورة تمكنا خلال سنة واحدة أن نؤمن خمس وعشرين وكيلا للسيد الشهيد في بغداد وجوارها وكنت أكتب تزكية لوكيل فكان السيد يعينه بلا منازعة او مراجعة وكلما شخصت وكيلا لا يراجعني بل يعينه راساً وامتدت علاقاتي حتى جاءني وفد من قضاء ابو صخير. وهو من الناحية الجغرافية يحد النجف إلى بغداد.

يطلب مني وكيلا إلى المدينة الصغيرة ولما ارسلت رسالة مع الوفد إلى سماحة السيد تعجب من علاقاتي واني المروج الاول لمرجعيته لان الوكلاء الآخرين والأقارب لم يقوموا يوما واحدا بهذا النشاط الكبير وأتذكر انني عندما ذهبت إلى سماحته بعد هذه الحادثة استقبلني استقبالا حارا وقال بلغ من شهرتك ان يذهب أهالي قضاء ابو صخير وهو قرب النجف إلى بغداد ثم دعا لي بالتوفيق وقلت له يومها هذا كله من بركاتكم وحسن العلاقة مع المقلدين لكم.

ولم نكتف إلى هذا الحد بل ذهبت إلى الخالص والى الموصل والى تلعفر وعشت اياما رائعة مع طلاب الجامعة هناك وكان الذهاب تحت عنوان حمام العليل الذي يبعد عن الموصل عشرين كيلومتر تقريبا وفيه عين كبريتية حارة تفيد الروماتيزم والأعصاب وكنت محتاجا إلى مثل هذا العلاج ايضا.

ورحلتنا إلى هناك موفقة حيث زرنا الشيخ ابو علي المولي مهنئين له بزواجه الثاني بعد وفاة زوجته الاولى في مدينة تلعفر التركمانية وهي مدينة تاريخية في بنائها وكأنها من مدن القرون الوسطى لم يتجدد فيها شيء سوى المدارس والمباني الحكومية.

وكان الشيخ أبو علي وكيلا للسيد الصدر أيضاً. ومما ينبغي ذكره إن صيت السيد الصدر بدأ يشق سمع الجميع فالسنة والشيعة عنده سواء والكل رأوا فيه مرجعهم وفيلسوفهم وقدوتهم.

من الجامعة إلى كل مؤسسات الدولة إلى الاسواق التجارية كل المثقفين في العراق يلهجون باسم هذا السيد العلم.

مدينة الثورة

امتدت علاقاتي من مدينة الحرية إلى مدينة الثورة وجميع أنحاء بغداد وكان الشباب يأتون إلى درسي يوميا من مكان بعيد حيث يقطعون من عشرين إلى ثلاثين كيلومتر لأجل صلاة المغرب وحضور الدرس اليومي وهو درس له اثر مبارك عليّ وعلى المدينة كلها.

وكان درساً هادئاً يتناول الاحكام الشرعية التفصيلية المطروحة في الرسائل العملية الفتاوى الواضحة. وأذكر انني كنت أقوم بتحضير الدرس كل يوم حتى انهيت قسم العبادات والمعاملات مرتين وحفظت الجزئين عن ظهر قلب وهذا ما جعلني حاضرا لكل سؤال واذا سئلت سؤالاً جديداً ولم أجد له حلا في الرسائل أمامي كنت أسأل السيد في كل مشوار أذهب فيه اليه، واذا اضررت أحياناً فعلى الهاتف وإن كان استعمالنا له مع السيد قليلا.

والمعلوم ان السيد لا يتكلم على الهاتف ولكن السيد محمود الخطيب او الشيخ النعماني جاهزان لهذا الامر، ومع ذلك فإن الاتصال بسماحته كان من جانبنا قليلا. ونتيجة لقراءتنا الرسالة العملية القراءة التدريسية الواعية وحفظ الاحكام صرنا خبراء بالاسلوب والمناهج ووضع النقاط على الحروف.

وكان لي ملاحظات كثيرة أبديتها لسماحته ونالت اعجابه. وبالمناسبة و بعد ان انهى الشيخ مغنية تفكيك عبارات الجزء الأول

في العبادات، بدأت مباشرة أجاريه في الجزء الثاني من المعاملات وكتبت مقدمة لطيفة، وأذكر انني أرّخت البداية وكانت ليلة الجمعة الساعة العاشرة ليلا مما لفت ذلك انتابه السيد فأثنى على الجهد المبذول وسمح لي بإكمال هذا العمل منفرداً وذلك تحت عنوان: كتاب فقهي للشيخ موافق لآراء السيد. وبقي هذا الجهد المتواضع مع مكتبتي ودفاتري في مكتبة الهادي في نفس المكان الذي كنت اسكن فيه، ومن البديهي أن صدام حسين لم يبقِ لها أي أثر.

ومدينة الثورة كما بدأنا مدينة اسست زمن عبد الكريم قاسم سكنها حوالي مليون شخص ثم زادت يوم كنا هناك وكان الكثير من شباب الثورة مقلدين للسيد ولم يكن لهم ملاذ الا الشيخ عفيف وزارونا كثيرا وفي بعض المناسبات زرناهم وشاركناهم في الافراح والتعازي واعتبر هذا النشاط مميزا لأن وضع المشايخ في بغداد بل في العراق بشكل عام وضع محاصر حيث لا يستطيع الشيخ ان يزور كما يشاء او يتكلم كما يشاء الا اذا كان محسوباً على النظام.

وعندما مات السيد محمد المبرقع أخو العالم الجليل السيد قاسم المبرقع ابن التسعين والذي كان لا يزال شابا. ذهبنا مرتين إلى مدينة الثورة أولا للتعزية وثانيا للمشاركة في احتفال ضخم بمناسبة الأربعين.

ولأول مرة يتكلم السيد حسين الصدر ابن اخ السيد الذي جاء من الكاظمية فألقى كلمة مكتوبة باسم السيد الشهيد الصدر وكان غير معروف منه انه يلقي كلمات، وهذا التطور في قدرة مرجعية الصدر على التحرك والاطلالة على المناسبات العامة وهي حالة لو كتب لها النجاح لسيطرت على الاعراف والاوضاع العامة.

واذكر بالمناسبة ان مراكز الحزب البعثي التكريتي في الثورة كانت منزعجة جدا من هذا الاحتفال الفريد من نوعه والذي قدر عدده بثلاثين الف رجل.

فقاموا يومها بتسليط عدد من الأبواق القوية والمزعجة بالنشيد الثوري للحزب التكريتي. ومع ذلك استمر الاحتفال والقى أحد الرجال يومها كلمة قيّمة ذات قيمة ادبية وسياسية وعبّروا عنه بالأديب فقط خوفا من ذكر اسمه لئلا يأخذه الامن الاستخباراتي وبقيت اجهل اسم هذا الاديب حتى جمعتنا الصدف في مدينة صيدا اللبنانية وذكر لي ذلك فضحكت، وقلت له كنت حائرا واريد ان اعرف الاسم فلم يتيسر لي في العراق فيتيسر لي بعد عشرين سنة في لبنان وهو السيد أبو عاصم الموسوي الخطيب الكربلائي الشهير ونحن الآن نعرفه جيداً لكن يومها لم يكن بيننا معرفة وظل في ذهننا حتى تم هذا اللقاء التوفيقي في مجمع السيدة الزهراء(ع) في صيدا وأخبرني السيد أبو عاصم بأن الأمن لاحقه فورا وشرد عن طريق الاخوة آل المبرقع ونام تلك الليلة في بيت قريب، ثم تخفى في لباس النساء وخرج وظل فترة مخفيا وأخيرا عثر الامن عليه وسجن مدة طويلة ثم افرج عنه بعد ذلك. وأخيرا جاء إلى لبنان واستقر في منطقة البقاع.

صلح مصر مع اسرائيل١٩٧٦/٧

عندما خطب الرئيس المصري محمد أنور السادات خطابه الشهير ودعا فيه إلى السلام بمسرحية واضحة الرؤى والمعالم قال في خطابه يومها اذا وجهت اليّ دعوة إلى القدس سوف البي وأذهب إلى هناك من حبي للسلام.

وبعد انتهاء خطابه بقليل أطلق «مناحيم بيغن» رئيس الوزاراء الصهيوني آنذاك الدعوى على التلفاز ثم وجهت عبر الوسائل الدبلوماسية ولم يطل رد الجواب المصري وتحدد الموعد تطبيقا للاتفاقات السرية.

وعلى مرأى ومسمع من العالم كله توجه (الرئيس المؤمن!) وهو يتلو قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ ونصب نفسه فقيهاً اصولياً مفسرا للقرآن في اعلى درجات الفهم السياسي والفقهي.

وهيأ له الاستكبار العالمي جوا اعلاميا ادهش العرب وجعلهم في حيرة من امرهم وذلك في خروج مصر من المعادلة القومية وهي اكبر دولة عربية تمتلك خبرات قتالية وتاريخ نضالي وعند المصريين حس قومي زرعه عبد الناصر وحس اسلامي ومسؤولية شرعية زرعها فيهم الازهر الشريف.

وتاريخ مصر في رد التتر وكسر دولة االمجرمين في القرن السابع الهجري مشهود له فكيف تخرج مصر من المعادلة. وآنذاك

قامت قيامة العرب وانعقد مؤتمر القمة في بغداد برآسة المهيب أحمد حسن البكر والمهيب ايضا مؤمن على شاكلة السادات!

وجاء شيوخ النفط وكان الملك فيصل بن عبد العزيز رجلا فاعلا في هذا الاتجاه فخرجوا من هذا المؤتمر بعدة اشياء اذكر منها نقطتين:

الأول: دفعت دول النفط الغنية إلى سوريا مليار ونصف دولار والى الاردن مليار والى لبنان نصف مليار والى منظمة التحرير نصف مليار والى مصر ملياران شريطة العودة عن اتفاقات الذلة والخيانة وشكلوا وفداً من مجموعةٍ من الرؤساء بينهم الدكتور سليم الحص رئيس وزراء لبنان وركبوا الطائرة وذهبوا إلى القاهرة لمقابلة السادات وثنْيِهِ عن رأيه وبقائه مع اخوانه.

الملوك والرؤساء الابطال والاسخياء في ساحة المواجهة، كان السادات يعرف موقفهم وعمالة البعض منهم فلم يستقبل أحدا منهم وعاد الوفد بخفيّ حنين.

وبدأت الاذاعات العربية بالتنديد بمصر ورئيسها وبالنظام المصري ونقلت الجامعة العربية من القاهرة إلى تونس المسرحية الكبرى. والمهم انه قبل توقيع الصلح مع العدو وحث العراق جميع المراجع الروحيين والسياسيين في العراق وخارجه ان يدينوا هذه الصلح وهذا التوقيع الخسيس والذليل.

وبما ان السيد محمد باقر الصدر يتحسس مسؤوليته الشرعية وهو ايضا يعرف خطر توقيع الصلح مع العدو كتب برقية وأرسلها إلى البريد بيد بعض أعوانه لتذاع في جميع انحاء العراق فردها البريد ولم يسمح للسيد الصدر ان يكون له شأن في ذلك حتى لا يأخذ دورا سياسيا يعومه عند الشعب العراقي.

فقرر السيد ان يذيع البرقية في المساجد عن طريق وكلائه وهم كثر، وخابرني السيد حسين الصدر إمام جامع التميمي انه يريد ان يأتي إلى بيتي، ولما أتى قدم لي البرقية وقال ان الجماعة لا يريدون ان يسمحوا للسيد بنشر هذه البرقية فقرر اذاعتها عن طريق الوكلاء لكن السيد الصدر طلب مني شريطا مسجلا عن خطبتي بما فيها اذاعة البرقية المنددة بالصلح مع اسرائيل.

وهذه المرة الاولى الذي يطلب السيد شريطا مسجلا ليسمع خطبتي والقيت خطبة حوالي نصف ساعة عن الراعي والرعية والمسؤولية الشرعية وأفضت في تفسير الرواية المباركة والنص الماثور.

ثم قرأت البرقية التي اثرت تأثيرا كبيرا في الجماهير وأخذت الشريط وسافرت بعد الصلاة بساعة تقريبا إلى النجف لأسلم على السيد واقبل يده واعطيه الشريط.

ولما وصلت فرح فرحا شديدا وكان شريطي أول شريط يصل اليه سمعه كله من الأول إلى الآخر ثم جئت اليه في اليوم الثاني فأثنى على ادبي وخطابي وشكر لي على هذا التحمل ودعا لي بالبركة والتقدم.

كانت قراءة البرقية يومها عملا جهاديا بحد ذاته، وكانت اجهزة الامن حاضرة هناك وسجلت الخطبة كما سجلناها نحن، وعلى كل حال فخطاباتي دائماً كانت تسجل عبر هذه الطريقة.

وقال لي البعض لو كنت في غير هذا المكان لاعتقلت فوراً، فقلت له: لكن هذا يناسبهم. قال: صحيح ولكن لا يحبون المشايخ ان يتحدثوا بالسياسة وهذا خلاف نهجهم.

دور السيد الصدر في إنجاح
الثورة الاسلامية الايرانية

لكوني في بغداد خفي عليّ كثير من نشاطات السيد إبان الثورة الاسلامية العاصفة وسوف اتكلم عن كل ما وصل الي ودار بيني وبينه وبين السيد محمود الهاشمي لأني اتحدث عن علاقاتي الخاصة وليس عن جميع العلاقات.

عندما وصل الامام الخميني إلى طهران وسقط عرش الطاووس وأعلن تحرك العالم الاسلامي بين فرح ثائر وبين فرح حذر خصوصا العراق الذي تحرك اهله بشكل حذر ،ومن الصحيح ان الساسة العراقيين لهم عداوة مع الشاه غير انهم ليس لهم اية مصلحة في هذ الطرح الاسلامي والدولة الاسلامية والتي كان السيد الصدر المنظّر الاول لها وهو الاساس في هذا التوجه السياسي وهذا لا يناسب الدولة التي تتخذ الاشتراكية شعاراً لها وتغطي بهذا الشعار كل عيوبها الطائفية والمناطقية. وأما الشعب فهو غير قادر على إعلان الفرح لما لهذا الاعلان من مخاطر على المعلِن.

والحوزة العلمية في النجف التي تدعو إلى تحكيم الاسلام سياسياً وعملياً لم تستطع ان تتوجه مع هذا الاعلان ولم تعطل دروس الحوزة ابتهاجا بهذا النصر الالهي الكبير.

ولم يخرج على كل هذا المألوف الا السيد محمد باقر الصدر الذي أعلن فرحه وتأييده وأعلن تعطيل يوم واحد في ١١ شباط ١٩٧٩ ابتهاجاً وحباً وتجاوباً مع الصوت الالهي الهادر الذي يصدح من ايران على سطوح المنازل ويرفعه إلى السماء ملايين المسلمين الايرانيين.

وقبل الثورة بأشهر قررت الحكومة البعثية مغازلة السيد الصدر. وجاء اليه كثير من الشخصيات المسؤولة حزبياً وأمنياً خصوصاً وأنه حرّم الدخول في أي حزب اسلامي لطلاب الحوزة مما يعني ان الحوزة العلمية جمدت الفكر السياسي مرحلياً وعملياً وهذا يؤدي إلى حالة من الاطمئنان لدى الحزب الحاكم الذي يخاف من الحوزة اذا صار لها توجه سياسي.

وأذكر اني كنت في النجف الاشرف للزيارة فالتقاني الشيخ عبد العزيز الفقيه[١] الذي كان يعمل لصالح المخابرات العراقية وكان يعرفني وأعرفه ايضا وكل واحد منا يعرف عمل صاحبه.

قال لي يومها: أنا حاضر لخدمة السيد اذا كان يريد طبع كتاب اقتصادنا فالدولة العراقية حاضرة لتطبع الكتاب على حسابها وطلبوا مني ان اعرض عليه وقد رأيتك فارحتني وأريد الجواب منك.

جرى هذا الحديث وانا في طريقي لمنزل السيد ،فلما وصلت اليه اخبرته بما قال لي الشيخ الفقيه وكان السيد يعرف الشيخ وعلاقته بالمخابرات فقال لي: هم جاؤوا اليّ اكثر من مرة (يقصد الدولة) واحيانا الامن وطلبوا مني طبع كتاب اقتصادنا وانهم حاضرون لكل خدمة في هذا المجال.

---

(١) شقيق المرحوم المرجع الشيخ محمد تقي الفقيه من بلدة حاريص في جنوب لبنان.

ثم اردف السيد قائلاً: قلت لهم . على طريقة التقية . فلسفتنا واقتصادنا كان لهم وقت وحاجة في أيام المد الأحمر أما الآن فليس لهما حاجة وأنا مهتم بالدروس الحوزوية والرسالة العملية وأنتم لا تمنعون ذلك، وهذا يكفي فالمرجعية غير مهتمة بأكثر من هذا.

ثم قال لي جواباً للشيخ الفقيه: يمكنك أن تقول له بأني فكرت في هذا الأمر فلم أخلص إلى الحديث مع السيد لأني رأيته منصرفا عن هذا التوجه ومهتم فقط في الدروس الحوزوية والرسالة العملية.

وعندما عدت من منزل السيد رآني الشيخ الفقيه وكأنه على موعد معي! فأسرع مرحبا قائلا هل ذكرت ذلك للسيد؟ فأجبته: لم أجد حاجة إلى طرح هذا الحديث لأنني عرفت من خلال الاحاديث انه عازف عن كل شي ما عدا الرسالة العملية والعمل للمرجعية. فسكت الفقيه ثم مشى . . .

ونحن في مدينة الحرية كنا حذرين جدا من اعلان أي فرح. وبمناسبة ميلاد سيدتنا فاطمة الزهراء(ع) كنت اتحدث عن دور المرأة، وكان الامام الخميني قد اعلن ان يوم ميلاد الزهراء(ع) هو يوم المرأة العالمي ولما وصلت إلى هنا قفزت عن اسم الامام احتياطاً. وكانت تأتي اليّ الاسئلة تباعا عن تكليف الناس في هذه الايام فكنت أورّي أو أسكت. ومن ألاعيب الحكومة آنذاك انها كانت توجه الصغار والكبار ليسألوني اسئلة ليحصلوا مني على شيء فلم اعطهم شيئاً.

وأذكر انني ذات ليلة بعد الصلاة والدرس الفقهي والمسجد غاص إلى خارج القاعة الكبرى تقدم شاب يحمل معه ورقة ليقرأها على المنبر بالمذياع وصدفة التفت اليه وقلت له ماذا تصنع والجو

قابل للاشتعال قال اهنيء الشعب العراقي بانتصار الجمهورية الاسلامية قلت له: انزل نحن غير معنيين بذلك. ولم اسمح له بهذا الاختراق.

وبعد الصلاة جاء عمه فشكرني على سرعة أخذ القرار وحفظ الشاب من التهور وقال عندما رأيته على المنبر عرقت خوفاً من احتمالات الضرر التي تجسدت عندي فجزاك الله عني خيرا.

وعزّ على هذا المسكين منعه فذهب إلى بيت امه وصبّ على نفسه النفط وأحرق نفسه وقد صلينا عليه ودفناه في النجف وكان الوحيد لأمه من الزوج الاول. وقيل حينها كلام كثير ولم أتأثر بكل ما قيل لاني خفت ايضا ان يكون مرسلاً من الامن والمخابرات ومن يومها لم يجرأ أحد على الكلام الا بإذن مني خاصة ولم تحصل غير هذه الحادثة في تاريخ وجودي هناك.

وجاء الشباب المؤمن في حزب الدعوة وغيره يستفسرون عن الموقف فكنا نقول لهم الموقف واضح هو الصبر وظهور النتائج ونحن في العراق يختلف تكليفنا عن تكليف غيرنا ولما ذهبنا إلى النجف وجدنا السيد في جو اكثر شجاعة والحديث عن الحكم الاسلامي استعيد والاجواء شبه حرة والحكومة في جو حذر بل تخوف ان يحدث في العراق كما حدث في ايران والعراق لا يتحمل مثل هذا الزلزال، وهي تحسب للنجف الف حساب وحساب وتحسب للسيد كل حساب.

وبدا نشاط السيد بشكل ملحوظ وكثر على بابه الناس وفكر يومها ان يدرس تفسير القرآن وهو ما اطلق عليه التفسير الموضوعي والذي استمر طيلة ثمانية اسابيع.

وكان الناس على موعد مع هذا الدرس فامتلأ مسجد الطوسي على سعته وكان يحضر الطلبة من اعمار متفاوتة لأن هذا الدرس ليس لعمر خاص بل كل من كان مثقفا يمكنه أن يفهم الدرس.

وهذا العدد الكبير من الحضور الذي جاوز الألف طالب مع أن درسه الاصولي والفقهي لم يصل إلى الماءة والخمسين كما أذكر، ولعل درس الاصول بقي في حدود الماءة أما هذا العدد الضخم في المسجد فقد اقلق الدولة واعتبروا هذا تحركاً جديداً للسيد خصوصا وان السيد تحدث عن طرح جديد ومرر في اثناءه اموراً عدة من خلال تفسير القرآن وذلك عندما تحدث فيه عن الفرعون وكيف يسوس الناس والرد على الفرعون وواجبات الامة، إلى ما في البحث من عمق سياسي واجتماعي وبأسلوب بعيد عن الاشارات والكفاية والتعريض بل هو درس واضح وصريح في عملية التغيير الطبيعي للأمة.

فكانت الدولة قلقة جدا من هذا التجمع وهذه الأفكار المطروحة وقالوا: حسب ما نقل لنا. لو أن السيد سب الحكومة آلاف المرات كان أهون عليها من هذه الدروس الموضوعية المحكمة.

ولما كنت بعيدا من النجف الاشرف لم اتمكن من الحضور الا مرتين او ثلاث ولكني كنت أحصل على الاشرطة فيما بعد واتابعها واحدة واحدة.

وسمعت عن البعض بأن السيد بعث إلى اقطاب حزب الدعوة وأخبرهم بأنه رفع يده عما قاله بشأن منع طلاب الحوزة والوكلاء الدخول في حزب اسلامي، ولم اسمع هذا الكلام من السيد ولكني

كنت قد عرفت تطور رأي السيد بالنسبة إلى التلفاز وكان يمنع اقتناء التلفاز وبعد الثورة سمح للمؤمنين باقتنائه مما يعني ان الثورة الاسلامية هيأت له موضوعات او غيرت الموضوعات لإصدار احكام مناسبة.

ومن جانبي كنت قد التزمت موضوع المرأة وحاضرت في الجمعة عن هذا الموضوع اثنتي عشر مرة وعلى أمل ان استمر خمس وعشرين مرة حسب المخطط لكن القدر لم يسمح لي بالتواصل أكثر من ذلك بعدما نفينا خارج العراق مثلما سوف اذكر لاحقاً.

وكنت قد سألت السيد عن رأيه في قضية الثورة الاسلامية وعن واجبات الشعب العراقي وقلت: الشباب يريدون ان يسمعوا صوتك في شريط مسجل وقال السيد محمود الهاشمي الذي كان موجوداً يومها: هذا صحيح على المرجعية التحلي بالشجاعة وإعطاء الرأي الواضح.

فوجهنا سؤالا للسيد ورد عليه في حوالي ثلاث دقائق وقد أيّد فيه الثورة بوضوح وبيّن واجبات الشعب العراقي وهيأه لثورة اسلامية أخرى. وأخذنا الشريط معنا وبعثنا خلف الشباب ففرحوا كثيرا. وقالوا لنا انه في الليلة الاولى نسخ منه الف شريط وفي الثانية وصل إلى عشرة آلاف شريط لكثرة الحاجة اليه.

فرحنا كثيرا في تلك الليلة خصوصا وأن الاذاعة الايرانية رددتها كثيراً. فقد صُور للإمام الخميني. ولا ندري كيف تم ذلك. ان السيد الصدر سيخرج من النجف تحت الضغوط الساسية التي تمارسها الدولة وتطالبه ان يعلن ببيان رسمي شجبه للثورة الاسلامية الايرانية ويدعو لتأييد الحزب الحاكم والثورة في العراق. وكان

الايرانييون يومها يتحركون بروح ثورية دون مراعاة للظروف الخاصة وكان النصر الذي تحقق قد حجب أي رؤية للجوانب الاخرى.

وإذا بالإمام الخميني يبرق للسيد الصدر برقية يؤيده فيها ويطلب منه البقاء في النجف للحفاظ عليها. وكان السيد قد بعث برقية للامام عن طريق سورية لكنها لم تأخذ أي ضجة. بينما أخذت هذه البرقية حجمها بشكل كبير !!

وعندما ابرق الامام الخميني الرسالة ونقلتها وسائل الاعلام الايرانية كان لا بد من الرد عليها فكتب الشهيد الصدر برقية عالية المضمون بليغة العبارة شكر فيها الامام على ابوته ورعايته واهتمامه بالنجف وبلغه فيها تحية الملايين من ابناء الشعب العراقي،وأكد له بقاءه في النجف الأشرف وانه لن يخرج منها الا شهيدا.

وكأن العراق كان ينتظر مثل هذه البرقية ليثور من البصرة حتى الموصل وتأتي الوفود رجالا وكبارا يبايعون السيد الصدر.

وقد قيل. توضيحاً لتبادل البرقيات بين الشهيد والامام ونشرها في اذاعة طهران. ان حزب الدعوة وراء هذا التحرك، وقيل أيضاُ إن منظمة العمل الاسلامي التابعة للسيد محمد الشيرازي هي التي حركت القضية الاساسية محاولة منها لإنهاء دور السيد الصدر المستقبلي في العراق ووضعت مرجعية السيد محمد الشيرازي (تحت الطلب) لأخذ الدور الولايتي في العراق كالذي أخذه الامام الخميني وأصبح كل مرجع يتمنى ان يكون له هذا الدور.

وبدأ الشيرازيون يثيرون اسم الصدر بأنه خميني العراق محاولة منهم لجذب الانتباه اليه من قبل الحكومة وبالتالي فإن هذا العمل يشكل تحريضاً واضحاً للحزب الحاكم.

وأذكر بعد مرور سنة على نجاح الثورة الاسلامية ذهبنا من لبنان مع وفد المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى وكان يومها في الرحلة: السيد محمد علي الامين والسيد احمد زكي تفاحة والشيخ محمد جعفر شمس الدين والشيخ حسن عبد الساتر والسيد محمد الغروي.

ونحن في ديوان الامام الرضا(ع) في مشهد والناس مأنوسة بهذا الجو العاطفي الكبير تتقدم إمرأة عراقية من السيد محمد علي الأمين وتتحدث معه عن الثورة الاسلامية في العراق وتقول اريد احد وكلاء السيد الصدر حتى ابلغه رسالة، واعتقدنا انها من حزب الدعوة وعندها حاجة ملحة، فجئت وقدمت نفسي انا الشيخ عفيف النابلسي وكيل السيد الصدر فهات ما عندك. قالت اريد ابلاغ رسالة لباقر الصدر، لماذا بنات الناس تنزل إلى المظاهرة وبناته لا تنزل، ولماذا يبقى السيد جالسا في بيته ولا يقود المظاهرات وبدأت تتحدث بروح تحريضية ضد السيد فقلت لها تعالي نتناقش هل هذا صحيح أم لا، الا انها لم يكن لديها غرض الا التشويش. وعندما عرفت اني وكيل هربت وتذرعت بحجج واهية وان ريقها قد نشف تحتاج إلى فكه وذلك كما زعمت وهربت من جو المناقشة. مما يعني ان منظمة العمل الاسلامي الشيرازية كانت تقوم بمهمة تحريضية ضد حزب الدعوة وضد السيد الصدر.

وعندئذ يمكننا بعد هذه المعلومات ان نصدق ما قيل ان منظمة العمل كانت وراء برقية الامام الخميني حتى يضطر الامام لارسال برقية اخرى لتخاف بعدها الحكومة العراقية من أي تحرك وتقوم بعمليات الاعتقال خصوصا وان رموز منظمة العمل الاسلامي يومها استطاعوا بسرعة ان يستلموا الاذاعة والتلفزيون في فترة لا تقل عن سنتين.

وكان (مدرسي إخوان) محمد ومهدي، لهما دور بارز في الترجمة والتعليق، ورأيناهما في تلك الايام بيدهما كل الاعلام وحتى أحمد الكاتب وأمثاله كانوا في تلك الحشود التي تحرض ضد السيد الصدر.

والمهم ان العراق تحول إلى ساعة متحركة وهائجة خلال اسبوعين وكان (براني) السيد يبدأ من الساعة الثامنة صباحا ولا ينتهي الا في العاشرة ليلا حيث جاءت الوفود من البصرة والعمارة والناصرية وبغداد والحلة الجنوب والشمال حتى كركوك كانت لهم مواكب تليها مواكب وذهبنا نحن من جامع الهادي سيارتان وسط حوالي خمسين شخصا فقط من الرجال والقيتُ كلمة امام الوفد وبكيت متأثرا بما سمعت عن مغادرته النجف وردّ علينا وعلى الوفد بكلمة مؤثرة جدا تعبر عن روح شفافة عالية في المسؤولية والالتفات إلى مستقبل الأمة حتى قال بعض الاخوة حصلنا على زوادة إلى سنة.

وعدنا متفرقين ولم يحصل اثناءها شيء يعكر مزاجنا، وبعد ليلتين تقريبا وفي حوالي العاشرة ليلا يخابرني أبو علي السيد حسين هادي الصدر إمام الكرادة الشرقية بالهاتف ويتعمد المخابرة بالهاتف بأن السيد يسلم عليكم ويطلب منكم ان تعلنوا للناس ان السيد يحرّم على الناس الذهاب اليه وفودا ويحرم عليهم هذه الجمهرة ومن أراد ان يأتي لوحده فلا مانع من ذلك.

ثم جاءني إلى منزلي بعد الهاتف وأخبرني بأن الحكومة جاءت وهددت السيد بأن هذه المظاهر يعني أنكم سوف تقومون بعمل انقلابي وثوري ضد الحزب والثورة والحكومة وبدأوا يذكرون اسمك بأنك خميني العراق ونحن لا نسمح بذلك وقد خاف السيد ان

تسبب هذه الوفود أذى كبيراً للمؤمنين لهذا يأمل منك أن تعلن هذا المطلب غدا في الليل بين الصلاتين.

وانما خابرني بالهاتف لكي يعلم المخابرات (المتنصتة على الهواتف) فعلموا الآن ان السيد يحرم زحف الوفود اليه.

وفعلاً في الليلة القادمة وبين الصلاتين حسب العادة ذكرت للناس هذا التحريم وهذه الفتوى السياسية الجديدة وكانوا وقتها كأن على رؤوسهم الطير فاندهشوا لهذا التحول حيث كانوا يحلمون بتغير في العراق على يد هذا السيد، وطبعا المخابرات عرفت ذلك لأنها عيونها موجودة دائماً اثناء الصلاة. وقامت المخابرات بتحرك واسع على بيوت ائمة المساجد وبلغت الجميع ان الذي يذهب في أي وقت سيعرّض نفسه للسجن والخطر الشديد. وبعدها بيومين جاءت سيارة للأمن ترجل منها ضابط ودق الباب فخرج اليه ولدي الصغير فقال له: عفيف النابلسي هنا قال له نعم فقال له (يخرج إلى ناس محتاجينه) ولما قال لي ذلك عرفت انهم الأمن لأنه لا يوجد فظاظة بالتعبير هذا الا منهم وكنت اتناول الطعام مع العائلة والاولاد فقمت ولبست ثوبي وتوجهت بسرعة وقلت لهم: يا هلا تفضلوا وسلمت على صاحب الوجه الناشف والثاني في السيارة ينظر نظرة حاقدة لئيمة.

وقال ممنوع الوفود لبيت باقر الصدر قلت متوافقين ونحن حرمنا ذلك وأعلنا باسم السيد ان زيارة الوفود حرام ولا يجوز لأحد ان يذهب بهذه الطريقة وتفضلوا إلى الطعام فهو موجود كما بدأ فاعتذر بكثرة الشغل وذهب، ولأول مرة اواجه اناساً بهذه الصلافة ولما دخلت لمحت زوجتي التغيّر على وجهي فقالت ماذا؟ قلت الأمن لعنهم الله جاؤوا محذرين ومانعين المشي إلى السيد بشكل وفود وما كانوا عارفين باننا نحن منعنا من جانبنا.

بعض الاشياء الملتبسة
حصلت عند مجيئنا إلى مدينة الحرية

كان في منطقتنا رجل كبير في الامن المخابراتي وكان يأتي ويصلي خلفي بشكل سري وينسحب وكان له علاقة معي مميزة ولم يعرفه احد انه رجل امن كبير وكنت ذهبت لبيته مرتين في عقود وزواج وجاء اليّ اكثر من مرة إلى البيت وذات يوم كانت ابنتي تريد السفر إلى الكويت فذهب معي حتى يعطوها الاذن في الخروج ودخل لأعلى الضباط ويسر المسألة بسرعة.

وجاءني بعد هذه الأيام واختلى بي وقال لي هذه آخر صلاة اصليها عندك ولا يمكنني بعد المجيء إلى هنا. وقال وقعْنا على اعدامنا اذا خالفنا الأوامر ونحن الآن نشاهد بأم العين شبابنا ويقصد شباب الشيعة يضربون ويقطعون ويموتون من شدة العذاب وعلينا أن نبقى بكل فرح وسرور نظهر الشماتة من هؤلاء ونعلن تأييدنا للحزب والثورة لرجال الأمن الجزارين زملائنا. وأرجو أن تنسى اسمي ولا تذكره ولا تذكر عني شيئا لكني اخبرك بأن هاتف بيتك مراقب مراقبة آلية فكل كلمة عندك مسجلة كيف كانت واما السيد الصدر فأكثر من هذا الوضع بكثير وهو في مسار التأزم فشكرته ودعوت له بالفرج من هذه المحنة التي هو فيها.

وكان عليّ اخبار السيد بكل جديد عن طريق الذهاب اليه

شخصياً او ابعث اليه مع من اثق به وكان بيني وبينهم علامة فاذا جاء رجل بإسمي يذكر لهم العلامة فيوصلونه إلى السيد لإخباره.

وبدأت الأزمة تشتد وأحب السيد حينها ان يختبر قوة وكلائه وكنت قد وضعته في جو جيد من حيث قدرتي على تحريك الجماهير في اقصر سرعة ممكنة فبعث لي ابن اخيه السيد حسين وأخبرني بأن السيد يريد ان نعرف منك مدى القدرة التي تملكها لأن الجماعة سوف لن يتركوا السيد ازاء الحركات الجماهيرية التي حصلت واقلقت النظام (ووضعوا كل الصيد في جوف الفرا) وكأنهم يرون ان السيد وحده يتحمل المسؤولية في مثل هذه البهلوانيات .وأن السيد أراد ان يقول لنا انا قادر على تحريك الشارع متى اشاء.

وخابرت بعض الاخوة في الجيش لاني كنت اجد الصدق فيهم، أما معارفي في الأمن فلم أخبرهم ومن غير الصالح مفاتحتهم لأنهم ليسوا محل ثقة نهائيا فلم أخبر احدا ولم اطلب من أي رجل امني حاجة خاصة في حياتي مع توددهم وتمنيهم لذلك. وطلبت منهم دراسة الوضع جيدا فأظهروا الاستعداد ولكن قالوا مثل هذه الأمور لا يمكن الاسراع فيها قلت وانا اقول قولكم نفس الكلام ولكن لا بد من تنضيج الفكرة اولا واعطاء كلمة السر ثانيا ثم كبس الزر النووي البشري ساعة الشدة والحاجة اليه.

وصادف اني بعد مشواري الأول مع الوفد الذي ذكرت لم اذهب إلى السيد وانما بقيت أتابع وأنسق وأظهر للأمن الذي يراقبني اني غير متحرك بشيء فأنا مشغول في تدريسي واجوبتي الفقاهتية ومطالعاتي الخاصة وكنت أبعث رسائل حسب الحاجة .والقضية لم تطل كثيرا.

وذات ليلة وأنا في البيت وصل العقيد جواد الطبيب الذي ذكرناه سابقاً وعلى دراجة عادية في ثوب أبيض عادي (دشداشة) وطرق الباب ففتحنا له الباب ودخل إلى الصالون وقدمنا له الشاي وكان يطلعنا على كثير من الأمور مع كل حدث واليوم جاء يقول ان الحكومة العراقية أخذت قرارا بالحرب ضد ايران والدليل أنها شكلت الطواقم الطبية من اطباء الجيش وهيأت مجموعة مستشفيات ميدانية في البصرة وعلى الخطوط القريبة من الحدود الايرانية.

والعقيد هو طبيب عراقي بدأ طبيب برتبة ملازم ثم تطور وهو يعمل في مستشفى الرشيد أكبر مستشفى في العراق وأحدث مستشفى في الشرق الأوسط.

سجلت معلومات كاملة وخابرت السيد نجاح الخطيب العاشورائي أن يأتي اليّ بعد صلاة الفجر وكان يأتي ويصلي معنا وبعد الصلاة أخذته إلى البيت وأعلمته ان عليه مهمة أمنية عالية يجب انجازها.

رسالة تأخذها إلى السيد في النجف وتذهب مبكرا وتخفي الرسالة وقد بعثتها معه بدون توقيع مني حتى اذا ضبطت لا تسرع النار الينا.

ومن حذر السيد نجاح انه صحب معه ابن اخته الصغير وكان عمره سبع سنوات ووضع الرسالة في ثيابه ووصل حوالي الساعة الثامنة صباحا والسيد ليس عنده أحد بعد ولما فتح الخادم أخبره بأنه مبعوث من الشيخ عفيف فأدخله بعد لحظات فدخل وسلم على السيد بكل أدب واحترام وسلمه الرسالة بكامل تفاصيلها. فشكره السيد كثيرا ودعا لي بالخير والتوفيق وعاد ليخبرني مطمئنا بأنه سلم الأمانة ما بين ليلة وأخرى.

كانت الاحداث تتسارع وكان ضابط المخابرات المسؤول عن منطقة الحرية أحب ان يطمئنّ بأننا متناغمون مع الدولة لأن الحكم العراقي فعلا كان قلقا بل خائفا.

فتم الاتفاق ان يذهب السيد نجاح لأنه كان قد أجرى الضابط اتصالات به وأحب ان يلتقي به وذهب السيد نجاح وطمأنه من جانبنا اننا لسنا في وارد تعكير الأمن في العراق على الاطلاق فلا تخافوا فالشيخ رجل عاقل لا يتصرف الا بحكمة والدليل انه منع شابا اراد ان يقوم بعمل بسيط وكلمة مختصرة فمنعه فكونوا مرتاحين من جانبه ونحن على اتصال.

والسيد نجاح مع اخيه صباح اللذان كانا من كوادر حزب الدعوة استطاعا بفعل ليونتهما في الحديث معه ان يطمئنوا هذا الضابط الحاقد على كل هذه التحركات التي تشغله وتقلقه وتمنعه من النوم.

ولكن الدولة لم يقر لها قرار ولم يكن عندهم سوى ملاحقة حزب الدعوة ووكلاء السيد واحدا بعد الآخر.

فبدأت بالبصرة وانتهت ببغداد وكان طلاب السيد من أوائل الملاحقين حتى اضطر السيد محمود الهاشمي ان ينسلّ ليلا بجواز غير عراقي كنت قد هيأته له عندما كان في بيروت وفرّ إلى الكويت ومنها إلى قم كما أتذكر وأما السيد محمد باقر الحكيم فقد جلس في بيته متخفيا لأنه كان خارجاً من السجن لتوّه وبقي إلى ما بعد استشهاد السيد الصدر وانسحب بشكل عادي جدا ولم يلتفت احد اليه الا عند وصوله إلى الشام

كان الشباب المؤمن في الحرية والكاظمية وجيع أحياء بغداد

ملاحقين وكنت افتقد البعض ولكثرة الشباب عندي ما كنت احس بغياب الشباب او قلة المصلين وكانت الثورة او النهضة الدينية قد وفرت للمساجد جوا عظيما ومناخا رائعا وكان ائمة الجمعة والجماعة في احسن حال حيث جماعتهم عامرة واحترامهم موفور ولهم من يحفظهم ويدعمهم في ظل مرجعية توجه الأمة توجيها رساليا رائدا وبعد فترة بدأت أحس بغياب بعض من أعرف من النشطاء فأسأل عنهم فيقال لي هم في السجن اعتقلوا منذ مدة وهكذا بدأ البعث الحاكم في العراق ملاحقة كوادر الدعوة وعلماءها النشيطين وتأمين بديلاً عنهم ينتمي إلى الحزب ويعمل لصالحه ويوفر له كل ما يحتاجه من أموال.

وفعلا تمكن الحزب من تجنيد الف معمّم (جاهل) وبدأ يسلمهم مراكز اسلامية مهمة وكان في منطقة الحرية معممان عميلان للنظام يمنعون الأطفال من دخول المساجد.

وفي هذه المناسبة أصدر الشهيد الصدر فتوى تحرم صلاة الجماعة خلف من لا يحمل وكالة من مرجع معترف به وتحرك كثيرون عن قصد او دون قصد ضد هذه الفتوى التي هدمت هذا الوضع الجديد فلم يتمكن أحد من هؤلاء المعممين الخونة بلوغ هدفه وعمالته.

وكما ذكرت كان في الحرية معمم يسمى بالسيد شمخي يزور المسجد بين الحين والآخر ويتودد اليّ وانا اعلم انه منافق.

وكنت في وقت الصلاة اقدمه ليكون في الصف الاول حتى لا يرى الصفوف الخلفية فيعدّ الطلاب المصلين وينقل تقريرا بعددهم.

جاء في بعض الليالي مع ابن اخته احد اعضاء الوقف الحاج

حمزة وجلس في الصفوف الخلفية وانسحب إلى بيت ابن اخته سريعا حيث سمعته زوجة الحاج صاحب البيت يخاطب الأمن ويقول لهم ماذا فعل هذا الشيخ من اين له هذا العدد من الأطفال الصغار اكثر من ثلاثماية فقط عددهم من المتوسطة وثلاث ماءة من الثانوية والباقي ما بين جامعة ورجال كبار وبدأ بالتحريض ضدي.

ولما جاء حمزة قالت زوجته هذا خالك رجل سوء لا يجوز ان يدخل بيتنا بعد لأني سمعته يقول كذا وكذا واخبرته بما سمعت من خاله.

وقد اشاع حزب البعث كثيرا من هذه الأفكار بأن الأولاد يثيرون شغبا على المصلين ويدنسون حصر المسجد والسجاد والرأي منعهم احتراما للصلاة والطهارة وخصوصا الجماعة.

جاؤوا من باب حرصهم على الدين والطهارة والأهم حرصهم على صلاة الجماعة وقد راجعني البعض وهو ذو اثر بأنهم يقولون كذا وكذا، فقلت له انا اسعى ان تكون جماعتي تسع جميع أهالي بغداد لا أهالي الحرية فقط والطهارة والنجاسة انا اخبر بها وانا لا يجوز لي ان اطرد أي انسان صغيرا كان او كبيرا واذا كان هذا لا يعجب الحزب والأمن والدولة فليوقفوا شرطيا على الباب ليمنع من يشاء ويدخل من يشاء فأنا اعمل لكثرة المصلين والجماعة فكيف امنع؟ وهكذا خسروا المعركة معي من هذا الجانب.

كان هذا محاولة منذ مجيء الشيخ إلى الحرية واستمرت هذه المحاولة منهم وفي كل مرة كنا نفشلها.

ومع كل الذي حصل من مضايقات سوف اذكرها متلاحقة بقيت على تجاهلي لها وكأنها لم تكن وبقي الجو الهادئ والذي يزعجهم

وعلى شدة الايام التي مرت لم اتصل بأحد منهم ولم يتجرأ احد منهم ان يتصل بي مباشرة وانما كانوا يوصلون بعض الافكار عن طريق واسطة واحدة أو أكثر.

وذات يوم عرض علي أموال من الدولة فقلت لهم الدولة دولتنا ونحن لها شاكرون لكن عن طريق من؟ فسكت قلت عن طريق الأوقاف تكون عملية طبيعية أما عن طريق الأمن فالمسألة (مليوصة) كما يقول المثل العراقي ـ أي ملغومة ـ فذهبوا ولم يعودوا بعد ذلك.

هناك كثير من الحرتقات لم أوصلها إلى السيد حتى لا أعكر عليه صفاء ما يعرفه عن نشاطنا الهادئ والرزين.

في بداية رجب غيرت خطب الجمعة من محاضرات حول المرأة إلى الحديث عن الامام الهادي عليه السلام وكنا قد اصبحنا قريبين من الثالث عشر من رجب للحديث عن ولادة الامام علي عليه السلام وكان من عادتنا في هذا المسجد اقامة حفلات بمناسبة مواليد الائمة واقامة مجالس عزاء بمناسبة وفياتهم وذكرى استشهادهم وكنا نقتصر على من في المسجد وهم كثر وبعد الصلاة نلقي كلمات وقصائد حوالي ساعتين ثم نوزع الحلويات والمشروبات ويذهب الجميع الى بيوتهم.

وكان عندي في هذه المناسبة خطبتان الأولى في يوم الجمعة والثانية مساء الجمعة ليل السبت ليلة الثالث عشر من رجب وكان ذلك بعد نجاح الثورة الاسلامية بخمسة اشهر.

وفي الاحتفال بذكرى الامام علي عليه السلام ذكرنا مقارنة بين سيرة علي وسيرة معاوية وحكم علي وحكم معاوية وذكرنا امثلة عن العدل والمساواة في عهد علي بينما في عهد معاوية لم يكن فيه الا الحكم الاستبدادي والذي أخذ العباد على الظنة والتهمة وذكرنا امثلة عن هذا

الجانب وذاك الجانب وأخذ (الرفقاء الحزبيون) هذا الخطاب على أنه موجه إلى الحكم والطعن فيه وأن الحكم العراقي الآن مثل حكم معاوية مع اننا كنا بعيدين جدا عن التعريض ولكن كما يقول المثل اللبنان (يلّي عنده مسلة بجنبه تنعره).

وكانت الخطبة وسيلة ووثيقة ادانة للشيخ عفيف حتى يخرج بشكل طرد من العراق وكان الأمن من يوم الجمعة يراقب المنطقة كلها ليلا ونهارا ولقد وجدت في احدى الجمعات مبكرا وقبل الظهر رجال الامن يطوفون المنطقة كلها ورأيتهم مقابلي واقفين يسمعون الخطبة خارجاً. واستمروا في الليل ساهرين وملاحقين إلى نهاية الاحتفال.

وفي اليوم الثاني جاءني الحاج ابو كاظم حوالي التاسعة صباحا وهو رجل يحبني كثيرا وأخوه في الأمن وله علاقات بحيث يعرف متى يأتي رجال الأمن وأخبرني بأني رأيت رجال الأمن بشكل ملفت للنظر، مما يعني شيئا، فأجبته كل يوم هم كذلك. قال لا هؤلاء كانو كثيرين وهم من خارج الحرية، فقلت له لا تهتم.

ثم جاءني عصرا وقال ضابط الأمن اتصل بابن اخي الموظف بالأمن يريد شريط مسجل عن خطاب الشيخ ليلة أمس قلت له الناس سجلوا والأمن سجل وأما انا فليس عندي مسجلة ولم اكلف احد بالتسجيل فليذهبوا ويأخذوا ممن سجل. ولم يكن مني هروبا بل واثقا لأنني لا اسجل وغير مهتم بذلك.

تدابير احترازية لإلقاء القبض على الشيخ عفيف بشكل هادئ

فمنذ مجيء الشيخ عفيف والأمن محتار ماذا يصنع بهذا الشيخ الذي غزا الحرية وحرك الناس تحريكا غير موجود في أي مسجد وهو رجل عاقل حكيم في تصرفه ولا يخرج من بيته الا لزيارة او فاتحة ولا يوجد (براني) عام وانما يأتي اليه افراد قلائل. وكنا اذا حدث لنا حادث نفسره بأنه صدفة حصل، وأما بعد ذلك فقد عرفنا عن طريق الظن القوي بأن هذه المسائل المتلاحقة لم تكن صدفة وانما كانت متعمدة وممنهجة أيضا.

١ ـ الليلة الاولى عندما نقلت العائلة جاءني قبل الفجر بساعة رجل سكران ودق الباب ولما فتحت له الباب شممت منه رائحة الخمر فدفعته إلى الخارج وحاول الدخول مرات وانا ادفعه وكانت البوابة الخارجية غير مقفلة جيدا لأن الاخوة عندما جاؤا ليلا ببعض الاغراض الكبيرة فتحت البوابة ولم تقفل جيدا مما مكّن هذا الرجل من الدخول إلى الدار من البوابة ودق علي الباب. ثم طرقت باب الجيران سألتهم عنه فلم يعرفوا ولم اتصل بالاخوة الاكارم. ولكن اتصلت عن طريق جيراني بسيارات الشرطة فجاؤوا وأخذوه معتقلا وضربوه ولما ذهبت قال تريد شكوى قلت لا ولكن أدبوه وكفى.

ولما اخبرت الحجاج قالوا فعلوها اللعناء. وظل الحاج كاظم

ينام ليلا عندنا مع بعض الاخوة ويحملون العصي وحسب قوله (التوثيّة) ولكن هذا لم يتكرر.

٢ ـ بعد يومين فوجئت بوفد من الدولة يريد تفتيش البيت وجاؤوا قبيل الظهر وقدموا أوراقهم وأنهم من المكتبة الوطنية وأصروا على الدخول فسمحت لهم دون مراجعة الاخوة ووكلاء الوقف وتصادف اني وحدي والاخوة في اعمالهم وفتشوا البيت فلم يجدوا شيئا قالوا اين الكتب المخطوطة قلت انتم تريدون مكتبة الشيخ نجم الدين العسكري قالوا نعم، قالوا اين هم قلت لا اعرف انا لبناني غريب عن المنطقة ولا اعرف اولاد الشيخ المرحوم ولما لم يجدوا شيئا اعتذروا. ويمكن ان تكون هذه الحادثة مصادفة.

٣ ـ بدؤا يفعلون امورا مشينة مثل أن يطرقوا الباب بعد الساعة الثانية عشر ليلا ويسألوا عن شخص صلى بالمسجد ولم يعد إلى بيته فقلت لهم لا اعرف وغير مسؤول عن زوار المسجد وهم كثيرون.

٤ ـ كان في الحسينية توابيت فكانوا بحجة التوابيت يأتون في ساعة متأخرة من الليل ليأخذوا التوابيت وأنا غير مسؤول عنها فأدلّهم على الحاج كاظم ابو الطحين(بائع الطحين) وعندما تضايقت كثيرا من هذه التوابيت فكرت في الغائها لكثرة الضرر وراجعت الوكيل الحاج كاظم الذي لم يلتفت قبل إلى هذه الامور.

٥ ـ كانوا يخابرون ويسألون مسائل يرونها شرعية وهي غير شرعية وغير صحيحة وكنا نردها ردا جميلا ونصرفهم بسهولة. وكانوا يعرفون رقم الهاتف فيخابرون ما ان نفتح الخط ثم يقفلونه وفعلوا ذلك مرات ومرات.

٦ ـ كانوا يسهرون أكثر الليل قرب البوابة الخارجية يراقبون من يأتي إلى البيت ومن يذهب.

٧ ـ استطاعوا أن يدخلوا علينا عن طريق تعيين خادم للحسينية وخفوا ذلك بعدم اعطائه مبلغاً كبيراً بحجة انه يتعلم محو الأمية ومحتاج إلى شغل وأخيرا عرفناه انه يلتقي مع الامنيين ولا يهتم بنظافة الحسينية والمسجد وعندها أقلناه من وظيفته.

١٤ حزيران ١٩٧٩ اليوم الموعود

كان هذا اليوم هو اليوم المحدد لإلقاء القبض عليّ وكنت غافلا عما يجري لأن وجود الأمن حول بيتي كما قلت لم ينقطع والمراقبة على الجماعة ايضا لم تنقطع وأخيرا كما ذكر لي الضابط على الهاتف انه مراقب مراقبة آلية. وثمة مجموعة من إشارات جاءت اليّ يوم السبت عصراً.

الاشارة الأولى جاءني شاب وسيم الطلعة طويل القامة عليه آثار النعمة تبدو عليه ملامح العلم والرتبة جاء يسأل عن وكيل السيد الصدر وادعى انه من البصرة وكان هذا عندي شيء عادي وسألني عن مسائل فقهية بحتة ورأيت انه مهذب جدا ولم يدر في خلدي انه من المخابرات لكن بعد ذلك لمع في ذهني لكثرة المؤشرات، واذا صح ذلك فيكون قد ارسلو ليتأكدوا من وجودي في المنزل.

أحد كتاب العرائض في باب المؤسسات الرسمية وهو ايضا نائب ضابط متقاعد كان يقرأ القرآن في مناسبات الفواتح والتعازي ويتقاضى عليها أجرة وهو من رواد مسجدنا كل ليلة، جاءني بحجة اختلافه مع زوجته يريد طلاقها لأنها حاولت اغتياله بالسم وانه لا يستطيع ان ينام في بيته هذه الليلة ولكثرة الترجي سمحت له ان يبقى في غرفتي الخاصة التي استقبل بها الناس ومن عندهم حاجة او اسئلة شرعية داخل حظيرة الساحة الكبرى في الحسينية وربما كان

وجوده ونومه في ذلك للإحكام علي من جميع الجهات هذا الرجل لم اشك به في ذلك الوقت ايضا.

وقبل ليلة جاءني شخص ادعى بأنه مقطوع وانه يحتاج إلى ان ينام ولو بلا غطاء ولكن هذا الرجل لم اسمح له.

وعصراً جاء إلى غرفتي في الباحة الداخلية شاب بعثي معروف في المنطقة وهو من جيران المسجد ويأتي أحيانا يتظاهر بالصلاة جماعة وهو مكلف من قبل الحزب الحاكم للقيام بالتجسس والمراقبة ورفع التقارير جاء يسألني عن العقيقة وانهم يطلبون مني كتابة الدعاء وتعليمهم. وهذا هو الوحيد الذي انقبض قلبي عندما دخل وشككت بأنه مرسل من الأمن او البعث ومع ذلك علمته وكتبت له الدعاء وذهب.

وكان عصرا قد أخبرني الصديق الحاج أبو كاظم بكثرة الحضور الأمني مما يعني اننا لو جمعنا هذه الامور بعضها مع بعض لعلمنا ان الأمن كان يريد تأكيد حضوري حتى ينقضَّ علي في ساعة متأخرة من الليل ويعتقلني في وقت لا يوجد فيه أحد.

وكان قد جاءني بعض المنشورات: المنشور الأول موزع من المعارضة العراقية في لندن وكنت اضعه في جيبي. ولما جاء السيد حسين الصدر وكان قبل ذلك بثلاثة اسابيع مما نحن فيه اظهرته له فقال كيف تضعه في جيبك، هذا عليه اعدام اذا وجدوه معك، لأنهم سيتهمونك بأنك توزع مناشير تحريضية ضد النظام، اياك ثم اياك ان تبقي شيئا في بيتك او في جيبك لأنك قد تؤخذ على حين غفلة من أمرك.

وفعلا تنبهت لهذا الغلط وعندما جاء الأخ سهيل طاهر مع

الأخ هاشم هاشم وهما من كوادر حزب الدعوة أظهرته أمامهما وقلت اقرؤه ووزعوه على الاخوة لمعرفة مضمونه واتلفوه ولما ذهب الاخوة قبل الاسبوع الاخير إلى النجف جاؤوا ومعهم منشور ضد النظام فقرأته ووضعته في بعض الكتب تحسبا لما سيطرأ.

وأخيرا وصلني منشور من بيت السيد خصيصا بعد ما دخل السوفيات إلى الافغان في حالة احتلال وكان السيد يشجب ويستنكر على السوفيات ويطالب بخروجهم حالا، من هذا البلد الاسلامي ويدعوا جميع الدول مساعدة اخوانهم الافغان وظل هذا في جيبي لأنه وصلني في يوم الجمعة عصرا او ليلا وكان قبل اعتقالي بيوم وظل في جيبتي الصغيرة مع القلم الذي لا يفارقني حتى دخلت المعتقل والتفت اليه وانا وحدي في غرفة الأمن ومقيد بيدي والقيد مرتبط بقارورة غاز فاستعملت الحبلة عندما مددت يدي لأقرأ جزء من سورة ياسين وكانت أيضا في جيبتي ولم يفتشوني فمزقت المنشور قطعا صغيرة جدا ثم القيتها تحت المروحة التي تنثرهم في كل مكان بحيث لا يلتفت إلى مثل هذا أحد.

وبالعودة إلى ظروف الاعتقال في تلك الليلة تأخر الاخوة في المسجد وكانوا يكثرون من الاسئلة علي وكان رجال أمن ثلاثة يراقبونني وأنا أنظر اليهم لأن وجهي إلى خارج الحسينية والاخوان غير ملتفتين لكنني ملتفت إلى تحركاتهم وكنت أظن أنها في طور المراقبة العادية.

وذهبت إلى البيت واطمأنوا إلى وجودي داخل البيت لأنني كنت أدخل إلى البيت من باحة الحسينية الكبرى دون الخروج منها والدخول من الباب الخارجي وكنت استعمل الباب الداخلي فقط في الليل وصلاة الصبح وخافوا أن اهرب من تلك الأبواب الداخلية

فكان لهم هذه الشبكة من الناس حتى لا أتمكن من الفرار وصعدت على السطح ونمت في الحادية عشر والنصف. وبعد نصف ساعة تقريبا قرع الجرس بقوة ودون انقطاع لإخافة من في البيت ولإسماعه لو كان على السطح وحاولت الحاجة زوجتي ان تنزل ومنعتني من الحديث معهم خوفا لأنهم رجال أمن فدقوا الباب كثيرا وخافوا خروجي من باب آخر وكان اذا طرقنا طارق في مثل هذه الظروف أخابر للجيران وللحاج كاظم او أحد الحراس الذي كان بيته قريبا من الحسينية فكانوا يأتون الي بسرعة الا في هذه الليلة فكنت ادق عشرين مرة ولا يرد علي احد حتى خرجت حلا للمشكلة وصحت من أنتم قال نحن رجال الأمن وأصبحوا يضربون على البوابة الخارجية حتى تمكنوا من فتحها قليلا ثم خرجت اليهم بقوة وقلت لهم كيف تدخلون البيوت بهذه الطريقة قولوا من انتم؟ . وهم يشهرون السلاح فوق راسي وراس عائلتي التي هرعت إلى عباءتها ولبستها احترازا وسترا وصيانة من هؤلاء الجلاوذة الملاعين . وبعد قليل قالوا هات جوازك وامش معنا، تسفير، قلت خير انشاء الله.

أخذت الجواز وأعطيت بعض الأموال التي كانت معي إلى الاهل وأبقيت مبلغا قليلا معي وقلت في نفسي قد احتاج إلى اجور الطريق على الأقل. ثم قادوني إلى قصر الاجرام وأنا غير مقيد ولم يصنعوا شيئا سوى التكبر والكلام السفيه. وفي الواحدة والنصف تقريبا أصبحت عطشا للحالة التي انا فيه وكان على الطاولة ابريق من الماء فمددت لأشرب فزجرني ونظر بعين زوراء ثم قال بعد ذلك: اشرب فشربت قليلا بعدما أخذ الجواز وسجل محضر ضبط ثم أدخلوني إلى غرفة من غرف المكتب وكان فيها لوح وكراسي فجاء بقيد ولم يجد شيئا يربط القيد به وكان قد سألني تريد حماما قلت

نعم فذهبت وتوضأت وبعد عودتي قال هات يدك، قلت: لماذا؟ قال: انت معتقل قلت: جيد لكن ما معنى القيد قال هذه أوامر قلت فلسفة القيد للمنع من الهرب قال نعم قلت: هل يمكنني الهرب قال: لا قلت: اذن اتركني اصلي. قال أوامر قلت: نفذ الاوامر ولكني اريد ان اصلي الصبح فمتى تأتي لتفكني من القيد قال أي وقت تريد دق الباب قليلا أنا آتيك وأنا حاضر ولكنه كان يكذب فلم يأت بعد.

وطرقت الباب كثيرا فلم يأتني أحد حتى السابعة والنصف ففتح علي الباب وسمح لي بالخروج إلى الحمام وعدت فعاد القيد في يدي. وبدأ الارعاب والتخويف والسب والشتائم وكل واحد كان يأتي ويسألني فعندما يعرف انني انا النابلسي يفرح ويقول ها شيخ عفيف سمحنا لك بكل شيء وأنت مرتاح عندنا ثم تخرج في مظاهرات ضد الدولة والحكومة والثورة قلت لا اعرف هذا اللون من الكلام اطلاقا.

ثم جاؤوا وعصبوا عيني وكان كلامهم قاسيا جدا بحيث لم يراعوا لنا حرمة لا للعلم ولا للدين ولا للمرجعية وكنا نسكت ثم سمعت حولي اصواتاً لا اعرفها ولو كنت اشتبه فيها.

وبدأو بالضرب المبرح على جميع البدن ونحن نصرخ من شدة الألم ثم عادوا ولكن هذه المرة بالفلقة فكان اثنان يمسكان بالرجلين كل واحد برجل وثالث يضرب بكرباج بعزم شديد وكأنه يريد كسر الصخر ولشدة الضربة والألم كنت أفلت من الشباب الأقوياء وانتفض عليهم حتى لا يبق عندي قوة من الوقوف ثم جاؤوا بآلات كهربائية وبدأو يمررونها على جميع البدن عذاب فوق عذاب حوالي ثلاث ساعات دون انقطاع وكظّني العطش وشدّ على الوجع.

فتركوني لحظات معصوب العيون أجلس على الأرض جلسة الذليل المهان وجاؤوا بالماء والطعام وكان طلبي الماء فلمّا قلت له ماء أعطاني وأخذت الدوتشا ـ ابريق بلاستيك ـ لكي اشرب فمنعني من الكثرة وقال هذا يضرك اشرب قليلا وكُلْ فلم اعبأ به لشدة العطش لكن مع ذلك منعني وأخذ الابريق مني وجاء بالسندويش فلم آكل قال لماذا لم تأكل قلت غير جائع وانا عطشان فقط فأعطاني الماء مرة أخرى واخذ مني ولكن خفت على نفسي العطش وكانت الحرارة عاليه في غرف التعذيب التي لا توجد فيها مبردة ثم أخذنا مرة أخرى للعذاب وبقينا فترة ثم جاء ضابط وسأل عن اسمي قلت عفيف النابلسي قال شيخ عفيف لماذا تعمل هكذا يا أخي احترمناك وسمحنا لك العمل في العراق وكنت تمشي في المظاهرات قلت: لم امش في المظاهرات في حياتي كلها وكأنه كان ضابط الحرية وأخيرا اجلسوني القرفصاء فترة من الوقت وكانت الأرجل تصفعني والايدي تضربني وانا متكيء على الحائط وكذلك من كان معي.

وأخيرا اخذونا وصرنا نمشي والعيون معصبة فلا ندري كيف نمشي واذا أخطأنا يضربنا واحد باليد وآخر بالرجل ثم اجلسونا وجاؤوا بالطعام وكانت الفترة قد امتدت إلى ما بعد الظهر فلم آكل ايضا قال يجب ان تأكل قلت غير جائع انا أشرب فقط.

وأما في هذه الحالة جاء ضابط أمن كبير وقال شيخ عفيف قلت نعم قال لمن معه هذا وكيل باقر الصدر، فلسفتنا واقتصادنا، عمي شلّك بهذا العمل؟! (أي ماذا تريد من ذلك).

وبعد فترة زمنية طالت أخذوني إلى مكان وحدي شممت معه رائحة الغاز فقلت نفسي هذه افران الغاز كما كنت اسمع انهم يعدمون في افران الغاز وبعد مدة علمت اني في المطبخ وجاء

شخص اسمه عباس وكشف لي عن بصري قلت صار العصر قال تصلي؟ قلت نعم فسمح لي فذهبت للحمام وتوضأت وعدت قال القبلة بهذا الاتجاه واستغربت منه هذه الليونة لأني لم أجد الا القسوة واللؤم وبقيت فترة غير معصب العيون وأجلسني على فرشة اسفنج وانا مقيد واستمر هذا إلى المغرب حتى جاء بالعشاء قلت غير جائع قال تعشى احسن.

وكنت اسمع الأصوات الممزوجة بالبكاء من مجموعة كانت تضرب ويطلب منهم الاعتراف ويقول له الضابط اعترف ممن القصيدة؟ والآن اخرجك من السجن وأرفع عنك العذاب فيقول له سيدي لا اعرف، ثم يضرب فيه بالسوط بقسوة.

ثم جاء وقال انت تبقى هنا وحدك وأخذ العصبة ليضعها على عيني قلت لماذا؟ اتركْها يا اخي، قال ستقول عنا اننا قساة قلت اذن اترك، قال: الأوامر تقول ان نترك العصبة على عينيك لكن انا سأعاونك فلا اشدها وترتاح فيها قليلا وفعلا عصب بدون شد وكنت ازيحها عن عيني ولما عرفت انه لا يوجد أحد ازحتها نهائيا وبقيت تلك الليلة مربوطا بتخت حديد موجود هناك وفقط بعصبة بقيت على رأسي.

صباحا جاء وغد جبس لئيم ورآني بلا عصبة فجن جنونه واقدم على تعصيبي بقوة وقال لعباس انت أرخيت العصبة على عينيه ان عدت مرة أخرى سأقول للضابط فسكت ذاك المسكين ولم يتكلم.

وبعد فترة صباحية كانوا فيها مشغولين بالتعذيب جاؤوا اليّ وأخذوني إلى مكان آخر وسألوني هل تعرف الشيخ حسن عبد الساتر قلت نعم قال: أين هو قلت هو في النجف وأنا في بغداد ومنذ مدة لم اره قال: واين كنتم تلتقون قلت في مسجد الهندي ومسجد

الخضراء او الصحن الشريف ومن مدة لم نجتمع فالتفت إلى السجين الذي في جانبي . واعتقدت انه يسألني انا . وانا لم اعرف ان إلى جانبي احد وقال: وهل تعرف الشيخ عفيف فأجبته انا الشيخ عفيف فسكت، واذا بالشيخ حسن عبد الساتر يجيب بأنه صديقي وكان يلتقي معي في النجف. قال اللئيم: متفقين اذاً، ثم نزع العصبة عن عيوننا وتركنا في غرفة من غرف التعذيب وكان الشيخ قد اعتقل قبلي باسبوع من الناصرية. وكان يتكلم باللغة العربية الفصحى حتى تحت التعذيب وجلسنا وحدنا في غرفة فأومأت اليه بالتحية وأشار اليّ انْ أسكت وكل واحد يبقى في زاوية لأننا تحت المراقبة وكانت هذه الغرفة يدخلها هواء مبرد ناعم وهي مسدودة وليس لها الا باب واحد وآلات التعذيب موجودة فيها.

وفجأة طلعت علينا الأنوار الصفراء الحمراء ففي كل دقيقة يسلطون علينا لونا من النور لإخافتنا وإرعابنا وكنا لا نفتر عن التسبيح، ولكن المهم اننا بلا تعذيب وقد بقينا في هذه الغرفة ليلتين والتعذيب هو التعذيب النفسي فقط وكانوا على أوقات الصلاة يأذنون لنا في الحمام والوضوء لكن لمدة خمس دقائق فقط وكنا نمتثل الأوامر وعندما يأتون بالطعام كنت آكل القليل أما الشيخ حسن فكان يأكل حصته كاملة.

وفي اليوم الثالث نقلونا من غرفة التعذيب إلى غرفة أخرى ونحن معصبان وبعد ساعة تقريبا أخذوا الشيخ حسن إلى الطبيب لان رجليه كاد الدم ان يخرج منهما لشدة الضرب والألم.

اما انا فمن اليوم الأول سألوا طبيب الامن، فقال يكفي. اما الشيخ حسن فعندما عرضوه على طبيب الامن قال: يتحمل دق بعد (أي ضرب).

ولما طالت غيبة الشيخ عني بدأت اشد على عصبة عيني حتى صرت انظر فأعرف بأني في غرفة فيها كتب وعمائم وجبب وأصحابها كلهم تحت التعذيب مثلنا. اذاً المكتب لتعذيب المشايخ وكانت غرفتنا مشغولة بالتعذيب وقبل المغرب بقليل أخذوا الشيخ حسن إلى غرفة التعذيب وتركونا، وقال رجل الامن للشيخ بعد المغرب تطلعون.

ثم جاء المغرب وطلبنا الحمام والوضوء فسمحوا لنا وقالوا خمس دقائق فقط فذهبنا وعدنا بسرعة صلينا ثم جاء بالعشاء وكان يومها فلافل فأكلت قليلا اما الشيخ حسن فحسب العادة كان يأكل حصته كاملة. ولما جاء ليأخذ الباقي سأله الشيخ حسن قال له انت قلت الليلة تطلعون، قال: تمهل وبعد ساعة جاء ومعه أغراضنا قال هذا لكم فنظرنا اليها فما كان لنا أخذناه فكان الصاية والجبة والعباية والساعة ولم يسرقوا الأموال التي كانت في جيبي وهي قليلة ثم عصبونا وأخذونا. وفي الغرفة الأخيرة نزعوا العصبات عن عيوننا وقال: إلى السجن وذهبوا بنا إلى السجن.

ولما وصلنا إلى السجن احسسنا بالراحة لأن السجن للرجال وما كنا فيه كان زريبة للبهائم. والتعذيب الوحشي لو كان للبهائم لماتت ولكن شاء الله ان نبقى أحياء .وفي مدخل السجن سجلوا اسماءنا واعطونا أرقاما ودخان وكانت حصتي من الدخان للشيخ حسن لأني لا اشرب الدخان.

ودخلنا إلى السجن فوجدنا اكثر شبابنا هناك في السجن وجاؤوا وسلموا علينا وقالوا الآن لا نتحولق حواليك لنرى ماذا سيحصل وبعد نصف ساعة نادوا باسمائنا وجاء الأمن وراءنا للتحقيق فخفنا ونحن اصبحنا مرتاحين لأن السجن لا عذاب فيه سوى

العذاب النفسي الطويل اما مكان التعذيب ففيه كثير من الألمين النفسي والجسدي.

ولما وصلنا انتهرنا هذا الشخص المعاون اللئيم الذي كان يعرفه الشيخ سابقا بلؤمه بأنه صاحب عبد العزيز الفقيه قال هات قصة حياتك فحكينا له قصة حياتنا بحسب ما يلزم وكان يعلق بسخرية على كل شيء لا يعجبه وأخيرا قال وقّع فوقّعنا وكتب بعد التوقيع (وكنت انتسب إلى حزب الدعوة) وأخذ يدي على المحبرة وطبعها وبدون التفات وافقنا وقلت لم انتسب إلى أي حزب قال ولا مرة قلت: كيف تكتب عني هكذا قال طيب هكذا صار اذهب للاعتراض وذهبنا لغرفة اخرى قال ماذا تريدون قلنا سجلنا بحزب الدعوة ونحن لم ندخل في حزب سياسي على الاطلاق. فصار يكتب وكتب اخيرا وكنت ادعو إلى الحزب والثورة والجيش العراقي وسماه اعتراضا ووقعنا عليه ثم اعادونا إلى السجن وسألنا الشباب بعد ساعة تقريبا عندما عدنا ماذا حصل فأخبرناهم قال كيف توقع نحن اكثر من شهرين من العذاب فلم نوقع قلنا لم نلتفت وآخر قال ولكن هذا عليه اعدام .ورأيت الشباب في صلابة وقوة غير عادية وبعد نصف ساعة نودي على اسمائنا فقال الشباب الآن تذهبون إلى بيوتكم فقلنا لهم هل من حاجة ،فحملونا السلام للأحبة.

ثم اخذنا إلى غرفة الجبس اللئيم وبعد ساعة جيء لنا بجوازات السفر كل واحد يذهب إلى حسينية ثم اركبونا في سيارة جيب رانج روفر ومشوا وطال المشوار ونحن لا نعرف اين صرنا فنحن بالوسط واربعة معنا السائق والضابط امام والمعاون اول إلى جنبي من ناحية الباب والمعاون الثاني إلى جانب الشيخ حسن من ناحية الباب الآخر وكلانا بين الرجلين.

وانا إلى جانب الشيخ قلت للشيخ حسن. وكنت قد صدقتهم لانهم كانوا عاديين وبما اننا ابرياء قدّرت ان كلامهم صحيح. انت الليلة تنام عندنا فلا داعي للذهاب إلى النجف اوالى الكوت قال ننتظر طوّل بالك والشرطيان غير مباليين لنا لانهما يعرفان إلى اين نتجه ولما طال سير السيارة حوالي ساعة وربع وبسرعة والخط واضح واسترداد وسرعتها لا تقل عن ماءة وعشرين في جالت في بالنا الهواجس والوساوس، وبعد مدة نرى انفسنا أمام ابواب مدينة الرمادي باتجاه سوريا.

في العاشرة ليلا وصلنا إلى مركز الأمن وجلسنا في غرفة فيها (كنفات) لا بأس بها فقال الضابط الكبير لأحد العناصر أمنوا غرفة فيها أسرة للمشايخ، فقلنا لا يهم المهم النوم فقال: الضابط تعشيتم قلنا نعم فأخذنا إلى غرفة فيها سريران واذا الغرفة ايضا غرفة تعذيب فما استطعنا النوم من التفكير وكنا قد اتفقنا مع الحارس على صلاة الصبح فقال انا حاضر دق الباب وانا افتح لكما فوراً ولكنه عند الصلاة كان مستغرقا في النوم فأخر لنا وقت الصلاة إلى ما قبل الشمس بقليل ثم نمت قليلا بعد التفكير ونمت يومها على عِمّتي فأصلحتها بعد ذلك وفي الثامنة جاءنا الشرطي يقول خلصتم قلنا خالصين من زمان ولم يعرضوا علينا شيئا من الشاي او الريوق ونحن لم نطلب منهم ثم اخبرونا بالتسفير إلى لبنان عبر سوريا عن طريق أبو الشامات قلنا خيراً فقال هل عندكم أجور الطريق قلنا انشاء الله.

وذهبت فأوقف سيارة كانت ذاهبة إلى هناك فركبوا فيها ووضعونا في الوسط ومشينا حوالي ساعتين ونصف تقريبا حتى وصلنا إلى الرطبة قبيل الظهر بقليل ونحن في مكتب شاهدنا رجلا

من الأمن يصلي فطلبنا منه السماح فرحب وكنا على وضوء فصلينا الظهر والعصر ثم خرجنا من الحدود رسميا وكان طردا من المقر بدون رجوع إلى العراق مدى الحياة.

ثم انطلقنا في سيارة لاند روفر وهما اثنان ونحن اثنان ركبنا جنب السائق واسرع حوالي ١٦٠ كليلو متر آخر الحدود العراقية وهناك سلمونا الجوازات ولم يقبلوا ان نوقف السيارات وهم كانوا غير مهتمين وكان الوقت المغرب وهم مشغولون بعملهم الخاص حتى مر سائق عنده سيارة (كدلك) جديدة فاعتذر بانه لا يركب احدا معه لأن كل سيارة يجب ان تقف هناك لإعطائهم الكرت الاخير وبقينا نناقش مع الاخ الشيخ حسن مرة نمزح ومرة نأسف ونبكي وكان الشيخ مستعجلا الخروج من ارض العراق خوفا من ان يعاد مرة أخرى إلى السجن اذا انفجر الوضع وهو باقي في الاراضي العراقية كما كان يقول اما انا فلم اكن افكر بمثل هذه الامور اطلاقا لأني على يقين من اني أديت رسالتي وواجبي والحكم الظالم رأى فيّ خطراً على مصالحه فابعدني ولا يريدني مطلقا.

مع مد الليل خيوطه جاءت شاحنة فتقدمت اليه فقال لي على الفور أين رفيقك قلت هذا هو قال تفضلوا ثم قال لنا: ارادوا ان يبعثوا معي شخصين قلت لا انا عندي اثنان على الطريق ثم حلف ان الله الهمه لذلك ورحب بنا، ولما مشينا حوالي خمس دقائق سألَنا عن قصتنا فقال الشيخ حسن قطعنا الحدود العراقية قال نعم فبدأ يشرح له ماذا جرى في العراق وكيف اعتقلونا واعتقلوا المشايخ.

وصلنا بعد قليل في مكان ينزل فيه السائق فتعشى هو واسترحنا من الوعكاء الشاقة ثم مشينا إلى ابو الشامات.

وهنا سأل رجل المخابرات مين معك قال معي مشايخ فجاء

الينا وسألنا أين اغراضكم قلنا لا يوجد عندنا أغراض وكان قد سمع بشيء من احداث في العراق وكانت النزاعات العراقية السورية على أشدها فسال ما القصة كيف يأتي المشايخ بالشاحنة هل انتم مطرودون قلنا نعم وشرح الشيخ حسن القصة باختصار حوالي نصف ساعة فأكرمونا الاخوان وقدموا الشاي وعرضوا الطعام ولم نقبل سوى الشاي ثم مشينا مع الشاحنة لأول دمشق وهنا اعتذر السائق الكريم بأنه سوف يذهب من هذه الطريق والا لكان أوصلنا إلى المرجة وشكرناه على صنعه.

أخذنا تاكسي إلى الفندق وكان فندق بيروت وطلبنا منه على الفور حماما حاارًا لغسل ثيابنا وتطهيرها مما علق بنا من نجاسات ونمنا حتى الصباح وقمنا وذهبنا إلى مطعم سحلول فتروقنا ثم ذهبنا إلى البريد لنبرق إلى الأهل وفجأة وأنا في الطريق إلى البريد ينادي شاب عراقي شيخ عفيف مولاي شيخ عفيف أنا فلان الحمد لله على السلامة انا الآن وصلت من العراق وكنا امس في مظاهرة شاملة كبيرة لأن الأمن أخذ السيد على بغداد وثار النجف وتصادمنا مع رجال الأمن وأنا أخذت السلاح من رجل الأمن وأطلقت النار عليه فأرديته وشردت من مكان إلى آخر ولم أمر على الحواجز حتى قطعت الحدود العراقية ثم ركبت سيارة وجئت إلى هنا.

ولما سمعت منه ذلك أخذت يده وقبلتها وقلت عاشت اليد التي تناصر السيد الصدر وتلتزم بفتواه بقتل هؤلاء الزمرة الكافرة.

والتقيت آخر من طلاب الحوزة من اللبنانيين وطلبت منه أن يأخذ علبة حلو إلى عائلتي ويخبرها بوصولي بالسلامة فرفض قلت له طيب هذا رقم الهاتف يرجى اخبارهم بوصولي إلى الشام حتى يطمئنوا فرفض أيضاً. فأيّ طلبة هؤلاء؟!!

وكان الحكم قد اعتقل السيد الصدر في يوم الثلاثاء ١٧ رجب وثار العراق من البصرة إلى بغداد إلى ديالي إلى الموصل فخاف النظام وأطلق سراحه بعد هذه الحوادث وأخبرني الشيخ طالب السنجري وكان معه يومها بأن المخابرات عندما اعتقلت السيد اصرّ الشيخ على مرافقة السيد ووصل معه في السيارة إلى مركز الأمن وهناك فرقوا بينهما وعذبوا الشيخ عذابا اليما، وآثار الدم السائل على ثيابه ظاهرة.

ولما قرروا الافراج عن السيد لم يقبل السيد الذهاب وحده الا والشيخ طالب معه وجاء الشيخ. في قصة يطول ذكرها. مع السيد وعاد السيد في نفس اليوم تقريبا ووصل متأخرا وكانت الحكومة مضطرة لهذا العمل من أجل تهدئة الأمة وانقطعت أخباري عن السيد الا بالرسائل ولما جاء الشيخ يوسف الفقيه أحد الطلاب الأوفياء للسيد وكان صديقي أيضا بعثت رسالة خاصة لسماحته وطلبت منه وكالة خطية حيث لم أكن احتاج الخطية في العراق وبعد فترة وصلت رسالة مطلقة وهي تعبر عن مدى حرص الاستاذ على سعادة تلامذته الأوفياء لكن الأسف الشديد انها جاءت بعد استشهاده(رض).

وبعد ان سكنت في بيتي في بلدنا البيسارية التي كنت دائماً اقول لهم اذا تغير الوضع في العراق فأنا عائد اليه.

وحينما جئت إلى بلدة البيسارية وبعد فترة جاءني السيد محمد الغروي وقال يسلم عليك السيد ويقول هناك مسجد في دبي كان يصلي فيه السيد مهدي الحكيم وانتقل منه إلى مكان آخر وهو شاغر قلت أنا خادم السيد وحاضر لكل الاحتمالات وكان ذلك قبل استشهاد السيد بشهر تقريباً. ولكن الآمال تبخرت بعدما جاء الخبر المؤلم باستشهاده رضي الله عنه وألحقه بآبائه الكرام وأجداده العظام.

خصائص شخصيته

١ ـ نابغة عصره بلا منازع واستاذ عبقري في علوم الشريعة والفلسفة وما كتب كتابا الا وكان المميز ولم يكتب شيئا عاديا على الاطلاق.

٢ ـ لا يجارى في التوسع والاستيعاب الفكري والاحاطة بأقوال العلماء.

٣ ـ لا يحتاج إلى قراءة الكتاب أكثر من مرة مهما كان صعبا مع ان ابن سينا قرء كتاب الفارابي أربعين مرة حتى فتح له فهمه.

٤ ـ فيلسوف مجتهد بشهادة العلماء الكبار وقد سبق في عصره كل من امتدت يده إلى الفلسفة وقد ذكرنا شهادات كثيرة.

٥ ـ مثقف عالمي يقرأ منذ صغره لكبار كتاب العالم وربما تتعجب وهو يحدثك عن أدباء مصر او منارة الاسكندرية كما يحدثك عن أهل الاشراق والعرفان كأنه منهم.

٦ ـ فقيه معاصر بكل ما للكلمة من معنى حيث يطل على كل المحتويات والموضوعات الجديدة ليقدم لها حكمها وهو قادر على التصالح مع المتغيرات السريعة.

٧ ـ لا يرفض الجديد بل يستوعبه ويستفيد منه ويجري الأحكام الشرعية عليه.

٨ ـ يقترح دائما احكاما لموضوعات لم تحدث بعد فإذا حدثت لا يرتبك الناس في التعاطي معها.

٩ ـ راهب من رهبان آل محمد على طريقة جده موسى بن جعفر عليه السلام يعمل بصمت ويهرب من السمعة والجاه ويحب أن تكون جميع اعماله بعيدة عن أي شبهة.

١٠ ـ لم نسمع عنه انه كتب بلغة أهل الاشراق لكنه صاحب ذوق وسلوك عال في هذا النهج.

١١ ـ عالم اصلاحي مجدد من الطراز الأول ولا شك لو أنه بقي لأسهم إسهاماً فاعلاً في إصلاح الحوزة وبرمج لها واقعها ليدفعها إلى التطور بل التفوق خصوصاً في ظل جمهورية اسلامية لها تاثيرها ودورها في التطبيق.

١٢ ـ زهده في الدنيا :من المعلوم زهد السيد وتقشفه رغم مظاهر الزعامة والرئاسة التي تستدعي صرف الأموال وفي بداية حياته كما ينقل هو عن نفسه كان الوضع المالي متدنيا إلى درجة فكر معها ان يشتغل يوميا لساعات ثلاث يحصل فيها على كسب حلال يقوته مع أمه واخته ولكن الصبر والتوكل على الله أنقذه مما هو فيه من قلق.

ولكن بعد الزواج واتساع شهرته وخصوصا بعد نشر كتاب فلسفتنا صار له وضع مالي مقبول بحيث اصبح مشهوراً لكن صرفه الشخصي ظل على حاله من الاقتصاد ولم يعرف انه كان يقتني سجادة ثمينة بل كانت البسط المتواضعة وبعض البطانيات القديمة هي التي تفرش بالصالون لاستقبال الزائرين حتى أيام المرجعية وزيادة الواردات.

وأخبرني بعض المحبين أنه بلغت به الحاجة مبلغاً اضطر معها إلى الاستقراض ثم جاءته اموال فأخذ منها ما دفع به الدين وفرق الباقي على الطلاب رأساً لعلمه أن الطلاب مثله يعانون من ضيق وفقر وكانت له بنت صغيرة تحضر معه غالبا في غرفته يحبها كثيرا وقد جاءته اموال ففرحت فقال لها بنيتي هذه اموال ليست لنا فتعجبت وكان حريصاً على بيان ذلك أمام أولاده ولما أصبح له وكلاء وكثرت عنده الأموال بدأ يدفع لطلاب الحوزة حتى لا يبقى عنده شيء واذا احتاج آخر الشهر شيئا يستقرض من بعض التجار المقلدين له ثم يسدد المبالغ بعد ايام عندما تأتيه اموال.

وأما بيته الأول الذي تشرفت في معرفته فيه فقد كان متواضعا للغاية وبعد وفاة المرحوم المامقاني وسفر أولاده من النجف بسبب قرارات الدولة الجائرة يومها قدم له بيت المامقاني القريب من بيت السيد الحكيم في سوق العمارة وهو بيت متواضع جداً فيه غرفتان في البراني وحمام وفسحة دار وغرفتان غرفة للمكتبة وغرفة أخرى أيضاً مليئة بالكتب وكان يستخدم هاتين الغرفتين واحدة له وأخرى لمكتبه ولم يكن عنده أكثر من مساعدين الأول السيد محمود الخطيب من النعمانية والثاني الشيخ محمد رضا وأيضا من النعماني ونحن نعرفه بالنعماني وكان السيد الخطيب مسؤول علاقات الخارجية أي خارج البراني وكان الشيخ محمد رضا الكاتب لحسن وجمال خطه وكان أمين المال والأسرار ويقوم بأكثر خدمات البيت والبراني وربما شارك في اشغال كثيرة خارجاً أيضاً.

مصرفه اليومي مع عائلته لا يتعدى الدينارين مع ان عائلته كبرت غير ان الجميع مبناهم على الاقتصاد.

وكان رحمه الله اذا دعا عالما كالشيخ مغنية ربما ينوع في

الطعام لأجل الضيف والا فالمعروف انه له اكلة واحدة ولم أكن مهتما بهذه الأخلاقيات لأسأله عنها ولعلمي بزهده وورعه وعزوفه عن كل هذه الدنيا لكنني كما ذكرت عندما جئته من لبنان وبعد عودتي من السفر المكلف به من قبله للقاء السيد موسى الصدر ابن عمه ذهبت اليه وكان في حي كندة في بيت أحد مقلديه الذي سافر وترك للسيد حرية السكن فيه سألني هل تعشيت فأجبت لا فنادى على طعام العشاء وجيء به اليه وكان طعام الزاهدين شيئاً من البطاطا واللبن والكرات والكرفس وقرصين من الخبز فأكلت نصف قرصة مع اللبن والكراث وكنت ملتذا لهذا الشرف ولهذا الزهد والتقشف وهي المرة الوحيدة التي احظى فيها بهذا التشريف.

وهكذا قضى رحمه الله حياته كما اني سمعت ان بعض التجار الاكارم في سوق بغداد عرضوا عليه وانقلها عمن نقلها عن السيد محمد باقر الحكيم وهو ركن. ان هؤلاء عرضوا بناء بيت أو شراء بيت له خاصة فرفض فظنوا انما رفض لعلمه ان ذلك من الحق الشرعي فأخبروه ان المال ليس من الحق الشرعي بل هو تبرع خالص وهم يؤدون الحق الشرعي كاملاً فرفض واعتذر منهم وشكرهم قائلاً انشاء الله املك بيتاً عندما يملك جميع الطلبة بيوتاً وأنا آخر من يملك وبالطبع هذا الكلام يشبه المستحيل لأن طلبة العلوم الدينية معظمهم فقراء فلا مندوحة للوصول إلى اشباع حاجات الجميع والوصول بهم إلى الكفاية ورفع الحاجة عنهم الا في ظل دولة اسلامية عادلة اذاً هو لا يملك في هذه الدنيا وهكذا فرض على نفسه أن يقدرها بضعفه الطلبة حتى لا يتبيغ بالفقير فقره فيهلك

ذات يوم مرضت وتغيبت عن الدرس فتحسس من غيابي لأنني كنت قريبا منه حين كتابة الدرس فسأل الشيخ حسن طراد عني

فأخبره بالمرض وفجأة جاءني بعد صلاة المغرب وطرق الباب بلا سابق انذار ومع اني كنت مريضا قمت احتراماً له واستقبلته على الباب وعدت إلى فراشي فاطمأن عليّ ولم يطل الجلوس عندي ودعا لي وودعني ثم قدم لي السيد محمود الخطيب الذي كان برفقته مبلغ خمسة عشر دينارا مساعدة طبية. ولقد رأى الشهيد الصدر بعضَ جيراني ففزع من هول ما رأى، فمن هو الشيخ عفيف حتى يزوره باقر الصدر، والحل لديهم كان بسيطاً، انه من اقطاب حزب الدعوة، ثم بعث هذا البعض رسالة لصاحب البيت يحذره من بقائي في البيت فبعث ولده لأخذ الأجرة ورفع السعر الجديد إلى ٢٥ دينار وهو سعر تعجيزي وكان السعر المتفق عليه يومها عشرة دنانير، فلم ارضَ بهذا التصرّف وتركته ونقلت إلى بيت أرخص، وقد يسر لي الله ذلك على خير ما يرام.

١٣ ـ الوفاء لأهله وأرحامه واصدقائه ومعارفه وطلابه.

١٤ ـ عطفه على طلابه وتعامله معهم بروح أبوية تجعلهم مأسورين لأخلاقه.

١٥ ـ احترامه واخلاقه لزواره ومريديه وهي حالة عالية يصعب على أي إنسان الوصول اليها.

١٦ ـ يستحي دائما من اساتذته حتى ولو كان رأيه مخالفاً لرايهم ومع ذلك فهو يتنازل لأجل صونهم وحقهم.

قال لنا ذات يوم: إن من صفات القائد الاهتمام باصدقائه واتباعه. وهكذا كان رحمه الله.

١٧ ـ مهتما جدا بقضاء حوائج اصدقائه حتى ولو كان فقيراً.

١٨ ـ له همة عالية جدا في الدرس والنقاش الحر ﷺ باخلاق ملؤها التواضع فعندما يحتدم النقاش لا يستعلي ابدا على احد بل يُشعر محاوره بأنه مساوٍ له ثم يبدأ بحل الاشكالات بشكل هادئ ولطيف.

١٩ ـ عندما كان يعلم بعض الطلبة ان السيد يقول بالتخيير بين صلاة الجمعة والظهر واذا اقيمت وجب الحضور وكان بعض العلماء يقول بالوجوب العيني التعيني وأخبر السيد بأنه يقيمها بالسرداب وقال له اعلمتك وعليك الحضور فاضطر السيد إلى الحضور مرتين واخيراً قال له تعال نتباحث افضل، ولما استكملت حلقات البحث باللطف وطرائق الاستدلال أمكنه أن يرجعه إلى رأيه ولم يعد يقيم صلاة الجمعة في السرداب.

٢٠ ـ عندما يرأى رأياً لا يعجبه من احد الاساتذة او الطلبة يشير اليه من بعيد بلمحاته الساحرة ولا يقوم بنقده بشكل مباشرة. وأذكر عندما قرأ له الشيخ محمد جواد مغنية كتابه صفحات لوقت الفراغ وكان فيه بعض الشطحات مبوبة تحت عنوان (شطحات فقهية) وفيها بعض الامور التي لم يستسغها الشهيد ،أجابه بعدما قرأ من هذه الشطحات بأنك سوف تقوم بتغيير رأيك هذا حتما بعد قراءتها ثانية وفعلا حذف الشيخ مغنية هذا الباب ومن دون ان يتعرض له الشهيد بأي كلمة لا تليق بمقامه.

٢١ ـ عندما كان يعترض على الماركسية يعترض من باب النقاش الهادي ويناقش نظرياتها وعندما يطرح الفكر الغربي الذي ناقشها ينصفها بأن الفكر الغربي لم يفهم الماركسية حيث لا يمكن لهذا الفكر ان يرقى إلى الماركسية فهو يقوم بعملية تشنيع او مسخرة ولا يقوم برد موضوعي على الماركسية وهذا بحث ملؤه الانصاف مع

انه خصم للماركسية ومع ذلك لم يسمح للفكر الهزيل ان يتطاول على الفكر الأرقى.

٢٢ ـ يحترم كل خصوصيات الآخرين ولا يناقشهم فيها ويحاول ان يجذبهم بترك بعض العادات بطرح بديل علمي او ثقافي او ادبي وتربوي بشكل هادئ ليصل في تركه إلى الصفر او ليصعد إلى الماءة.

٢٣ ـ له فكر عالمي وصفات عالمية فهو في نفس الوقت الذي يطرح فكره العالمي لمعالجة القضايا الحساسة بالعالم ويهتم بالمسلمين وخصائص اسلامهم كما يهتم في المذهب الامامي ويدعو إلى تطبيقه لكنه لم يحرج محاوريه بدعوتهم للالتزام بمذهبه او حتى الالتزام باجتهاده.

وكان رحمه الله يمتحن نفسه ويقارن فيما اذا تألم قطر او بلدة خارج العراق هل سيكون ألمه واندفاعه بنفس المستوى. ويقول: لو كان هذا الألم لمدينة في الصين هكذا كان يتحسس المواضيع العامة ويؤسس لها.

٢٤ ـ رغم حبه لبلده العراق موطن الائمة المعصومين سلام الله عليهم لكنه في نفس الوقت يحب ايران وسوريا ولبنان بنفس الدرجة التي يحب فيها العراق فيتعامل مع شعوب تلك البلاد بنفس الروح والعاطفة التي يحب بها العراق.

٢٥ ـ كما أنه يهيم بتلامذته، نرى ان تلامذته من خلال هذه التربية يهيمون به ولا ينسونه ويتعاملون معه كأنه إمامهم الدائم ومرجعهم الدائم وأنا من هؤلاء رغم تطور فكري الفقهي لا زلت أدعو لتفوقه الفقهي والمرجعي وأحسبه اعلم العلماء بلا منازع وكلما

أذكره في خطبة أتأثّر وربما بكيت من شدة تأثري به وهكذا أكثر طلاب السيد ـ كما اسمع عنهم ـ وهذه العلاقة غير موجودة بين الاساتذة وطلابهم الآخرين ولقد قيل عن شخصيته الكلام الكثير وما ذاك إلّا لأنه من الشخصيات المهمة التي جسدها للناس. وكل ذي نعمة تلقاه محسوداً!

وأما علاقته بأهل البيت عليهم السلام وعقيدته فيهم فأنا لم أجد أحداً أكثر منه حرصاً على علاقة طاهرة في البيت النبوي الأصيل.

ومع كل حرصه على الوحدة الإسلامية التي تعتبر عنده الهدف الأسمى، ومن المعلوم أن صاحب الأهداف العليا يترك كثيراً من عواطفه ولوازم معتقداته أحياناً لهذا الهدف، إلّا ان السيد الصدر استطاع أن يتجاوز هذا الموضوع بسهولة فهو يحفظ جدته الزهراء عليها السلام وفي نفس الوقت يحافظ على الوحدة الاسلامية العامة لصالح الزهراء عليها السلام ولصالح صاحب الزمان (عج).

وما ذالك الا لوعيه ونضجه وسمو مشاعره وسعة إدراكاته وقدرته على تبيان الفكر الاستراتيجي لأهل البيت عليهم السلام وان الذي يعمل لصالح دولتهم عليه ان يربط الارض بالسماء والدنيا بالآخرة والألم بالأمل ويخوض معركة الحياة بكل عزيمة ووعي ويقين.

ولا شك عندي أيضاً بأن إمامنا الشهيد لو بقي حياً إلى عصر الجمهورية الإسلامية لأسهم إسهاماً مباركاً في نهضتها ودعاها إلى الانفتاح وأسس لفهم إسلامي عام ولجذب العالم الإسلامي إلى ساحة أهل البيت عليهم السلام أكثر فأكثر.

خاتمة

وأنا صاحب البضاعة المزجات أدعو اصحاب البضاعة الكثيرة ان يعيدوا قراءة السيد الصدر ليكتشفوا ليس فقط ما ذكرته بل فيه اكثر بكثير مما وصلت اليه وما اسمعه عن بعض طلابه من عدم استيعابهم لمشاريع الصدر ناتج عن خلل فكري طرأ عليه من وشوشات غربية وتشوهات نشأت من بعض الاصطلاحات غير المقبوضة عندنا.

هذا هو الصدر صدر الناس أجمعهم　　وفخر كل المعالي من هنا وهنا

كتبت هذه الأفكار بعد خمس وعشرين سنة وقد ضل كثير من التفاصيل وبقيت امهات المطالب ولا شك لو انها كتبت في وقتها لكانت اكثر وضوحا واكثر تفصيلا لأن التفاصيل الكثيرة يأخذ الزمن منها كثيراً. والحمد لله اولاً وآخراً

عفيف النابلسي

صيدا ـ مجمع السيدة الزهراء عليها السلام

في: ٢٧ ذو القعدة/ ١٤٢٣

الموافق له: ٤/ ٢/ ٢٠٠٣م

الفهرس